غزوة أحد

في ضوء القرآن الكريم

تقرير الأبحاث

العلامة الشيخ محمد رضا الجعفري قدس سره

١٣٥٠ - ١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

محاضرات في التاريخ الاسلامي

غزوة أُحد

في ضوء القرآن الكريم

تقريراً لأبحاث:

العلاّمة آية الله الشيخ محمد رضا الجعفري

١٣٥٠-١٤٣١هـ

تعريب:

العلامة السيد محمّد شعاع فاخر

سرشناسه: جعفری، محمدرضا، ۱۳۱۰ - ۱۳۸۹
عنوان و نام پدیدآور: غزوة أحد فی ضوء القرآن الکریم/ تقریراً لابحاث: محمدرضا الجعفری ۱۳۵۰ - ۱٤۳۱ هـ؛ تعریب: السید محمد شعاع فاخر
مشخصات نشر: تهران: نشر تک، ۱۳۹٤.
مشخصات ظاهری: ۲٤۰ص
فروست: محاضرات فی التاریخ الاسلامی.
شابک: ۹-۳۸-٦۷۳۷-۹٦٤-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت: عربی
موضوع: محمدﷺ، پیامبر اسلام،۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق.
موضوع: غزوه احد، ۳ ق.
موضوع: غزوات.
موضوع: اسلام - تاریخ- از آغاز تا ۴۱ق.
شناسه افزوده: فاخر، سید محمد شعاع، مترجم
رده بندی کنگره: ۱۳۹۴ ۷ج۳الف/BP۲٤/٤۵
رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۳۷
شماره کتابشناسی ملی: ۴۱۶۸۰۲۹

*****

غزوة أحد، العلامة الشيخ محمدرضا الجعفري

الناشر: تک — الطبعة: الاولیٰ — تاريخ النشر: ١٤٣٧هـ

الشابك: ۹-۳۸-٦۷۳۷-۹٦٤-۹۷۸ — الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

*****

مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات
قم المقدسة، الهاتف: ۳۲۹۱۷٦۱۱-۰۲۵ الفاكس: ۳۲۹۱۷٦۱۰-۰۲۵
البريد الكتروني: info@bjafari.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيد رسله وخاتم أنبيائه وأفضل خلقه محمد وآله الطيّبين الطاهرين الأئمة الهداة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لاسيّما أولهم مولانا أميرالمومنين وسيد الوصيّين وقائد الغر المحجّلين وخاتمهم مولانا الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه وجعلنا من أنصاره وأعوانه في غيبته وظهوره والعن اللهم أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين ولاحول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحيم**﴾[١].

اللهمّ كن لوليّك الحجّة بن الحسن المهديّ صلواتك عليه وعلى آبائه الطاهرين في هذه الساعة وفي كلّ ساعة ولياً وحافظا وقائداً وناصراً ودليلاً وعَيْناً حتّى تسكنه أرضك طوعاً وتمتّعه فيها طويلاً وهب لنا رأفته ورحمته ودعاءه وخيره ما نَنال به سعة من رحمتك وفوزاً عندك.

---

١. الحشر (٥٩): ١٠.

كلمة المركز

مع اتساع الآفاق الفكرية وتشعبها في زمن الثورة المعلوماتية الهائلة التي ألقت ظلالها على الفكر الإنساني، كان لابد لكل صاحب تراث أن يتحرك للحفاظ على تراثه من العبث العلمي الذي ربما يعصف بموروثه الفكري والإنساني، واللازم على كل ذي تراث أن يسعى للمحافظة على ما وصل إليه من السابقين كي ينقله إلى الجيل الذي يليه، محاولاً بذلك أن يبقي تراثه نقياً من فكرة فاسدة أو رأي سقيم مستولد عن فكر غير سوي يُخاف منه على تراثه، نتيجه الفاصل الزماني الطويل في مراحل النقل.

والتراث الشيعي أحد هذه الموروثات ليس خارجاً عن هذه المعادلة، بل الاهتمام بالفكر الشيعي من حيث سلم الأولوية يقع بالصدارة، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الموروث الشيعي كان منذ القِدم مستهدفاً من أعدائه أيما استهداف لما يُشكل من قوة فكرية ومنطقية وعقلية يهابها المزيفون للتاريخ.

هؤلاء الذين لم يدخروا وسعاً في استهداف كل ما هو أصيل فحاولوا تشويه بُنى المذهب ومحاربته وطمس معالمه ظناً منهم أنهم قادرون على إخفاء الحقائق الجلية، ومن هذا المنطلق تشكلت سياسة المعاداة في ضمن لغة التخريب والكذب المدروس و(فبركة) لقلب الحقائق لإعطائها طابعاً واقعياً كي تنطلي الحيلة على البسطاء من الناس، فاستأجروا الأقلام الرخيصة والأنفس الضالة لهذه المهمة القذرة حتى نسبوا للطائفة الشيعية أموراً مقيتة.

والقارئ لتاريخنا الإسلامى يجد في كثير من المواضع أنه قد أبتلي بالأهواء النفسية

والنزعات الشخصيّة إلى الحد الذي ابتعد فيه عن جادة الموضوعية، وهذا مثّل خطراً على الأمة ونقلها إلى منطقة الصراعات والتناحرات، حتى صار المتتبّع للتاريخ يسير بخطى سريعة إلى مجهول مظلم لا تعرف عواقبه وصار العثور على الحقيقة ضرباً من الاستحالة.

إنّها جريمة الاعتداء على الأمانة التاريخية، فمسخوا صورتها، وشوّهوا حقيقتها، ورفعوا الذين من شأنهم أن يكونوا في أسفل سافلين، فلمعوا صورهم، ونسبوا إليهم كلّ عظيم، ووجّهوا أخطاءهم التي غصّت بها بطون الكتب لتصل إلى اللاحقين ناصعة بيضاء مشرّفة، وهذا ما فعلوه مع الشخصيّات الرسالية التي كانت تدأب جاهدةً في إثراء التاريخ بكلّ ما من شأنه أن يجعل التاريخ تاريخاً مشرّفاً يفتخر المرء بأنّه أحد المنتسبين إليه، فشوهوا صورهم الناصعة لتصل إلى اللاحقين صوراً مشوهة مزيفة.

إنّ هذه الأيادي التي استأجرت لتقلب الحقائق بقلمها المرتزق إنّما فعلت ذلك بعدما باعت آخرتها بدنيا غيرها، وبعدما باعت طاقاتها بحفنة من الدراهم المعدودة، وبعد ما قبرت ضمائرها لتخلق من أقلامها وحوشاً تنهش الأمانة التي يجب أن تكون موجودة عند كلّ صاحب قلم وعند كلّ ذي مادة علمية، فرفعت الداني، وأنزلت العالي، ونسبت وقالت ووضعت، حتّى أصبح تاريخ المسلمين في كثير من المواضع موضع ريب وتوقّف.

ناهيك عن التقية التي كان يعيشها الشيعة خوفاً من التنكيل وهرباً من ألوان العذاب الذي كان ينتظرهم لا لأجل جريمة اقترفوها هنا أو جريرة عمدوا إليها هناك، بل كان لأجل موالاتهم لعلي بن أبي طالبﷺ، فاعتبروا مولاة علي جريمة تستحق القتل وهم بذلك يريدون أن يقتلوا فكر عليٍ في كل نفس شيعية.

فلم يقف أعداء المذهب عند هذا الحد، بل استخدموا الكذب طريقاً للوصول إلى

تحقيق مآربهم حتى في عصرنا الحاضر، والشيعة مع كل هذا لم يألو جهداً للرد على هذه الفئة بالطرق العلمية ليخرسوا ألسنتهم ويلزموهم بالحجة بعد ما كان دأب القوم الفرار من المنازلات العلمية والاكتفاء بإلقاء التهم من بعيد، ومن هنا نرى تصدي علماء الطائفة ـ رحم الله الماضين منهم ووفق الباقين ـ لمثل هذه الأصوات الناشزة وردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، لكن تبقى خفافيش الظلام ساعيةً إلى حجب ضياء الحق عن أعين الناس، فهؤلاء الذين يقتاتون الكذب سرعان ما تراهم في زاوية مظلمة من زوايا التاريخ لا يذكرهم الذاكر إلا وذكر الكذب والزيف معهم، ويبقى الفكر الشيعي متألقاً على مدى العصور والدهور، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس ومن واقع المسؤولية الملقاة على عاتقنا اتجاه تراثنا الشيعي وبتوفيق من الله تبارك وتعالى ومن إمامنا الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف قمنا بالتالي:

١ـ قد تم بحمد الله وتوفيقه وبمساندة بعض المؤمنين المهتمين بنشر معارف أهل البيت عليهم السلام تأسيس صرح علمي يهتم بنشر معارف الفكر الجعفري والذب عن حياض المذهب أمام الهجمة الشرسة التي تواجهها الطائفة اليوم والمتمثلة بالشبهات والافتراءات خصوصاً في مجالي العقائد والتاريخ، تحت اسم «مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات» والذي بدأ نشاطه عام ١٤٢٢ هـ ولم تكن فكرة إنشاء هذا المركز إلا إيماناً منّا بالدور الفاعل الذي تلعبه المؤسسات العلمية في وقتنا الحاضر، إذ أخذنا على عاتقنا أن نضيف لبنة إلى تلك المسيرة العلمية الظافرة وأن نشارك في بناء عقيدة الفرد الشيعي وحمايته من جميع الشبهات، لما نراه من تكليف شرعي ملقى على عاتقنا وتلبية لنداء الضمير الديني، فإننا لم ندّخر وسعاً في إنجاز هذا المشروع بأكمل وجه سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبل أعمالنا بأحسن القبول.

٢ـ تمّ الاستعانة بالعالم الجليل العلامة الشيخ «محمد رضا الجعفريﷺ» للمساهمة في إثراء مجال البحوث والدراسات والنهوض بالمركز من الجهة العلمية والإشراف على الحركة العقائدية المتواصلة، وذلك لما كان يحمله الشيخ من علمٍ وافر وآراء دقيقة سديدة، خصوصاً وأنه قد صرف عمره الشريف في التحقيق وتقديم الدراسات والنظريات خدمة للمذهب، وتلبية لهذا النداء قام سماحته مشكوراً بالانتقال إلى مدينة قم المقدسة، ليكون مشرفاً مباشراً على المؤسسة، فكان وجوده الرصيد الأكبر للمؤسسة، مما حفّز كثيرين للعمل بجدّ والتساوق لتقديم الأفضل للمذهب، خصوصاً أنّ سماحة الشيخ قد قام متفضلاً بنقل مكتبته العامرة للمركز ليخلق بذلك حافزاً آخر للنهوض بالمسيرة والخروج بنتاجات عملية مشرّفة.

٣ـ طباعة مجموعة من المدوّنات التي تخدم المذهب في مواضيع متعددة، إحداها وهي ألتي بين يديك، وهي عبارة عن تقرير مباحث لسماحة العلامة الشيخ محمد رضا الجعفريﷺ حول غزوة أحد حيث كان رحمه الله يلقي محاضرات في التاريخ الاسلامي متخذاً القرآن الكريم مصدراً ومنبعاً لذلك باللغة الفارسية وقد قام المركز بتدوينه ثم قام سماحة العلامة السيد شعاع فاخر مشكوراً بتعريبه واخراجه الأمر الذي جعل هذه المحاضرات قابلة للعرض والاستفادة.

وفي الختام لابد أن نقدّم شكرنا الجزيل لكل من ساهم في تهيئة وتقديم هذه المجموعة القيّمة في مراحلها المختلفة.

والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً.

مركز الثقافة الجعفرية

للبحوث والدراسات

قم المشرفة ١٤٣٧ هـ

المقدّمة

إنَّ الصورة المرسومة في خواطر كثير منا هي قصة شجية عن أول هزيمة تعرّض لها المسلمون في صدر الإسلام، وقد تسبب فيها ضعف الايمان وعصيان الرَّماة الذين وضعهم النَّبيﷺ على فتحة الجبل لحماية ظهور المسلمين، فتركوا المكان طمعاً في العاجل، وحمل عليهم المشركون من جهته.

ولقد تناولت كتب السيرة ـ ومنها سيرة ابن اسحاق، وتابعه كلّ من كتب في السيرة أو جلّهم على أحسن تقدير، بل كثير من نقلة الأخبار ورواة الاحاديث والحكايات من الشيعة ـ مجريات أحداث ثاني مواجهة بين الاسلام والكفر، وكان أوارها قد اشتعل واتقدت نارها في حرب أُحد، على أساس الأخذ بالثار والانتقام لدماء القتلى من المشركين في حرب بدر. واتفق المؤرخون على قاسم مشترك بينهم جميعاً في حرب أحد وهو أنَّ حكاية حرب أُحد تبدأ من الموضع الّذي قدم فيه أبوسفيان بن حرب ومعه ثلاثة آلاف من المقاتلين الذين عركتهم الحروب ومع هؤلاء الفتيانُ ونساء المشركين بعرضٍ صاخب فيه الكبكبة والدبدبة والهياج والصياح.

وخرجوا جميعاً من مكة لحرب المسلمين، ولما بلغ أبوسفيان موضعاً قريباً من المدينة أمر بخيامه أن تضرب، وأقام اطنابه ومضاربه هناك، وعسكر في ذلك الموضع، وحينَ علم النَّبي بما اقدمت عليه قريش عقد مع المسلمين مجلساً للشورى وتبادل الرأي

فاختلف المسلمون حينئذٍ فيما بينهم، فمنهم من رأى البقاء في المدينة والقتال فيها وأن يتترسوا في بيوتها وجدرانها، ولكن فريقاً آخر رأى الخروج منها لازماً ومقاتلة المشركين خارجها، وكان النَّبيﷺ لا يريد الخروج من المدينة في بداية أمره ولكنّ كثرة الراغبين في القتال خارج المدينة واصرارهم على ذلك حمل النَّبيﷺ على الخروج ورضي بالقتال وراء أسوار المدينة، وفي اثناء الطريق عاد جماعة من أصحابه إلى المدينة بحجة أنَّ النبيّ ردّ رأيهم ولم يقبل مشورتهم، لأنهم كانوا يحبذون البقاء في المدينة والقتال فيها.

فانفصلوا عن جماعة المسلمين وعادوا إلى المدينة احتجاجاً على الوضع، واختلف المسلمون إزاء المنشقّين إلى قسمين: فمنهم من يرى قتلهم واستئصالهم ومنهم من خالف في ذلك. وعندئذ نزلت الآية (٨٨) من سورة النساء معاتبة المسلمين على اختلافهم في قضيّة المنافقين.

ولم تكن هذه الظاهرة إلا فتاً في عضد المسلمين وتخذيلاً لهم وإضعافاً لمعنوياتهم، اذ أنّ رجوع ثلاثمائة مقاتل من جيش النَّبيﷺ لابد أن يترك أثراً سلبياً على نفوس القوم، وعند ذلك عسكر النَّبيﷺ في سفح جبل أُحد.

وكان المشركون يعزون هزيمتهم في حرب بدر إلى عدم وجود حملة ألوية اكفاء وملتزمين وذوي شجاعة، لذلك حمل أبوسفيان معهم من بني عبدالدار حملة ألوية شجعاناً واكفاء وأصحاب بصيرة والتزام، وكان أصحاب اللواء عشرة أنفس من المشركين، وأقسموا أن لا يتركوا اللواء حتى يقتلوا عن بكرة ابيهم، وكانوا قتلوا في مبتدأ المصادمة الواحد تلو الآخر.

وقتل آخرهم وهو مولى لبني عبدالدار، وبقتله حلّت الهزيمة بالمشركين وفرّوا لا يلوون على أحد، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم.

ولما رآهم اولئك النفر الذين تركهم النَّبي عند فتحة الجبل ليحرسوها، تركوا مواقعهم وانحازوا إلى جمع الغنائم، وكان خالد بن الوليد يرصدهم بخيله ورجاله، فلما رأى الجبل قد فرغ من حرّاسه اغتنم الفرصة ودار بهم من خلفهم وانحدر على المسلمين هابطاً من تلك الفتحة وأعمل السيف فيهم.

ولما رأى المسلمون أنفسهم في ورطة الهزيمة انحازوا نحو الجبل وطلعوا عليه وصعد النَّبي الجبل وسلم بنفسه الشريفة من هذه المعركة الشرسة وظل حمزة وجماعة معه يقاتلون حتى استشهد حمزةعليه السلام ومعه ثلة من المقاتلين.

وفجأة والناس بين هارب ومقاتل والحرب على اشدّها أشيع بين الناس بأنّ النَّبي قد قتل وهذه الاشاعة أصابت المعنوية الاسلامية بنكسة شديدة فازداد الطين بلة وزادت المحنة على ما هي عليه بحيث اعتزل المسلمون القتال بعد الاشاعة وانحازوا نحو الجبل.

وفي هذا الاثناء ارتفع صوت أبي سفيان يرسل شعاراته «أعل هبل»، يقول عمر: فسلبني شعار أبي سفيان صبري، ولم أتحمّل منه هذه الإهانة، وعند ذلك رفع عقيرته في الرد على أبي سفيان فصاح: «الله عزّوجل لا سواه»[١]، فعرف أبوسفيان عمر فناداه: هل أنت ابن الخطّاب؟ فقال عمر: نعم، فقال أبوسفيان: هل محمد حيٌّ؟ فقال: نعم

---

١. ويروى أنّ رسول اللهﷺ قال لعمر: قل له: «الله أعلى و أجل». (ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ١٥/ ٣١).

هو حيّ ويسمع كلامك، فقال أبوسفيان: أنت عندي أصدق من ابن قمئة.

وكانت الفرحة تظهر على أبي سفيان بعد هزيمة المسلمين وأخذ يصيح وينادي مبتهجاً: «يوم بيوم بدر» ومثل ذلك كان يظهر على المشركين من الفرح وهم يرددون شعراً يحكي عن شدّة جذلهم بانكسار المسلمين:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

وكان المشركون يزغردون وظهرت الفرحة على ملامح وجوههم.

ثم صاح أبوسفيان بالمسلمين «إن موعدكم ببدر العام القابل».

وكانت هذه نبذة مختصرة أخذناها مما روته كتب السيرة عن وقعة أُحد من الأحاديث والأخبار.[1]

ولكن اعتقادنا الراسخ أنّ في أحداث حرب أُحد قصصاً عن غربة خاتم الأنبياء مودعة في الآيات القرآنية لم يكشف قناعها أحد تختلف مع ما هو محرر في كتب السيرة جملة وتفصيلاً، وبين الأمرين اختلاف جوهري.

ولذا نتناول القضية في هذه الكتابة من منظور قرآني، بحثاً وتدقيقاً. لأنّ القرآن كلام الله وحجة الهية على الناس، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نتدبّر كلماته كلها لكي يتجلى لنا معاني الجمل والصلة الكائنة بين جملة وأُخرى، وكما تستنبط الأحكام من الآيات يلزم أن تستنبط جميع المسائل المرتبطة بتاريخ الإسلام من متون الآيات، لأنّنا نعتقد أنّ القرآن الكريم حتى وإن لم يتخذه البعض حجة الا انه مبين لتاريخ النّبي

---

١. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٤ وما بعد.

حتماً، لأنّ النَّبيﷺ كان يقرؤه على شرائح المجتمع كلها في تلك الآونة، بأيّ دين تديّنوا وعلى أيّة ملّة كانوا.

ولو عثر أعداء الإسلام يومئذ على أيّ اختلاف أو أيّ تحريف فيه للحقيقة لملأوا الدنيا زعيقاً عليه وأقاموها ولم يقعدوها، واتخذوا من ذلك مِعْولاً[١] يطعنون به الإسلام، كما حدث في حرب أُحد عند ما عاد المسلمون منهزمين، مكسورة خواطرهم إلى المدينة.

فقد شرع المنافقون ببث الشبهات وبذر الشكوك في قلوب المؤمنين البسطاء، وقالوا لهم: إنما كان نصركم في بدر على نحو الصدفة وكانت مواعيد النَّبي لكم تخفق أحياناً ولا تصادف الواقع بحيث نفذت هذه الأقوال الشيطانية إلى قلوب المؤمنين الغافلين فأثّرت فيها أثراً عميقاً.

وبناءاً على هذا فإذا كان المنافقون يستثمرون اعوجاج الفهم عند بعض المسلمين هذا الاستثمار فإنَّ الأمر أوضح من الشمس في استفادتهم من تحريف الوقائع أو نقل القضايا مخالفة للحقيقة في القرآن الكريم.

وبعد هذه المقدمة نكون قد أوضحنا السبب الّذي من أجله جعلنا القرآن فيصلاً في القضايا والاختلافات، وكلام الله فصل الخطاب في كلّ التناقضات والاختلافات المرويّة في السيرة.

وفي هذا المجال ندعوا القارئ الكريم إلى الفهم الدقيق لمعاني كلام الله تعالى ليكون

---

١. المِعْوَل: شبه الخنجر يشده الفاتك في وسطه للإغتيال. (الزمخشري، **الفائق**: ١/ ٢١٢).

بمنأىً عن الإيحاءات الشيطانية للمعاندين، وتخفق فلا تترك أيّ أثر يذكر في روعه. مضافاً إلى إتمام الحجة عن هذا الطريق ـ أي تدبر القرآن وتطبيقه على مشاهد السيرة ـ على المغرضين، ودعوانا تنحصر في لزوم إعادة قراءة حرب أُحد على ضوء الآيات القرآنية لكشف الحقائق المستترة وراء هذا الحدث العظيم والمدفونة في ركام التاريخ بعد مرور هذه الحقبة الزمنية الطويلة عليه.

والذي يبدو أنّه منذ البداية قد جرى تحريف هذا الحدث وحذف مشاهد منه، ومن هذه الكوّة المطلة على حرب أُحد نعرف أنها لم تكن على نحو الإنتقام لهزيمة المشركين في موقعة بدر، بل هي مخطط جرى تصميمه من قبل، والغرض منه تجاوز شخص النَّبيﷺ وأثره في تغيير المجتمع وتأثر علاقاته به.

ولم تكن هزيمة المسلمين راجعة إلى تخلي الرماة عن موقعهم في ثغرة الجبل، بل جاءت نتيجة حتمية لتحالفات المنافقين ومؤامراتهم، وكان محور هذه المؤامرة هو ترك النَّبيﷺ وحده في وسط المعمعة.

وعلى هذا الأساس أحدث منافقوا المدينة بتظافر الجهود مع المشركين في مكّة جرماً رتبوا مقدماته فيه لبقاء رسول الله مفرداً وحده يحيط به المشركون من كلّ جانب ويكون في قبضة أيديهم.

ولكن مع بدء الحرب قتلَ أميرالمؤمنينعليه السلام حملة الألوية فقلب معادلة الحرب لصالح المسلمين، ولم يبق مجال لتطبيق خطط المشركين، ولما شاهد المسلمون هزيمة المشركين طمعوا في الغنائم فاضطربت صفوفهم واختلط في مواقعهم الحابل بالنابل.

وهنا سرت العدوى إلى حماة الثغرة الرماة فانهالوا على الغنائم، وخلّوا تلكم الثغرة

الحسّاسة بدون مقاتل، وألحقوا أنفسهم بالغانمين طمعاً في حطام الدنيا، وتركوا مواقعهم الّتي أمرهم النَّبيﷺ بملازمتها على أيّة حال، وكان المنافقون بعد أن شاهدوا إخفاق مخططهم يترصّدون الفرصة ليغتنموها، ويجروا المخطط الّذي أعدّوه لهذه الحرب، وسنحت لهم الفرصة عند ما جرى ترغيب المحافظين على الثغرة في جبل أُحد بالغنائم ليتركوا مواقعهم شاغرة وينزلوا لجمع الغنائم، وحين وقع ما تمنّاه المشركون رأوا أن الطريق صار معبّداً لهجوم خالد بن الوليد، وانتشرت بين الناس إشاعة قتل النَّبيﷺ، وعندئذ تحققت الحبكة الّتي كانت تحكم الجيش كلّه، ولم يبق أمامه إلا أن يلوذ بالفرار.

والواقع أنّ حرب أُحد صفحة ناطقة عن غربة النَّبيﷺ، فقد كان معهم ولكنّه يحيى وحده، إنّها غربة ذات ظلّ ثقيل، فقد ظلّت آثارها ماثلة في سماء المدينة حتى بعد وفاة النَّبيﷺ.

وكانت من الشدة بحيث تركت نفس رسول الله أميرالمؤمنينعليه السلام حبيس بيته خمساً وعشرين سنة هرباً من جهل الناس.

إنَّ قراءة حوادث الحروب في صدر الإسلام قراءة ثانية ومتأنية تعطي ذهن الباحث الذريعة لإمكان حصوله على جواب مقنع لمجريات الأحداث بعد وفاة النَّبي ﷺ الّتي وقعت في المدينة لاحقاً، وهي ما عُرفت بأحداث السقيفة.

وهل باستطاعة امرئ عاقل التصديق بأنَّ حوادث السقيفة ما هي إلا طفح آني ثار من أعماق المجتمع؟ أو أنّها ذات جذور ضاربة في عمق الجماعة المنحرفة، وينبغي التماس منابتها في نفاق واضعي تصاميمها؟

لماذا ما فتئ الله سبحانه في القرآن الكريم يحذر المسلمين في الأشهر القليلة الباقية من عمر النَّبي ﷺ من خطر المنافقين؟

سيما بعد وفاة رأسهم عبدالله بن أبي، الذي توفي في السنة التاسعة من الهجرة، بعد آخر غزوات النَّبي ﷺ، فمن هؤلاء المنافقون الذين يخوّف الله المسلمين منهم؟

وهل يصح اعتبار كبار الصحابة الذين شاركوا في حرب بدر وأُحد وخيبر من هؤلاء المنافقين وأنّهم مصاديق للآيات الّتي نعتتهم؟

هذه أسئلة مهمّة نحاول محاولة جادّة أن نجد أجوبة واقعيّة لها في «إعادة قراءة حرب أُحد على ضوء آيات القرآن الكريم».

المدخل

قبل أن نقرأ واقعة أُحد ونتوغّل في تبيينها نجد لزاماً علينا معرفة عدد من النكات الضروريّة.

أوّلاً: وقوع الحرب في منطقة يكون لفهم خصائصها دور مهم في فهم حوادثها الواقعيّة.

ثانياً: لما كان العامل الإنساني بخاصة في المجتمعات البدائية يعتبر واحداً من أهم العوامل المؤثّرة في السنن الاجتماعية والتقاليد السائدة أبّانها، فينبغي أن يبحث بحثاً متخصصاً ورائداً.

وبناءاً على هذا، فإنَّ معرفة التركيبة السكّانية للمدينة والنسيج الّذي يضمّ جماعتها القاطنة فيها، وتجلّي ذلك في الجيش الّذي عزم على المواجهة في «أُحد» له تأثير كبير في نقد المادّة الّتي تتقدم الاحداث.

ونتيجة لذلك سوف يتجلى لنا جانب من حقيقة الحوادث الّتي صاحبت الحروب في صدر الإسلام واحتجبت بين السطور الّتي غطّاها القتام وسترها الرغام واستكنت بين وقايع التحريف والحذف والمحو الّذي جرى للتاريخ.

لذلك ترانا على طرف الالجاء والقسر بل تفرض علينا الضرورات فرضاً، قبل

تصفح كتب السيرة أن نلقي نظرة فاحصة ومتأنية على هذه الكتب، كيفيّاتها وإعدادها، وسير الأحداث فيها، فكان لزاماً علينا قبل الدخول في البحث وضع هذه النكات الثلاث بين يدي الموضوع، ويحتم علينا تقويم هويّة البحث أن نميّزها بعناوين ثلاثة أمام القارئ.

الأول: «نقد في السيرة غير الإماميّة» ثم «نظرة في التركيبة السكّانية للمدينة ونسيجها البشري المسلم» وفي ختام البحث «نظرة في الموقع الجغرافي لجبل أُحد».

١ ـ نقد السيرة غير الاماميّة:

إحدى نقائص كتب السيرة المدوّنة في وسط غير امامي هو الفاصل الزمني الكبير بين عصر التحمل وعصر التدوين، وهذه الفترة الطويلة أوجدت المناخ الصالح لطرو أحداث مغرضة على التاريخ ودخولها ضمن أحداثه المحققة الثابتة ولذلك بدى تدوين السيرة بوجه مخالف لوجهه الطبيعي وشكله الواقعي.

وأولى السير المدونة هي سيرة ابن إسحاق، المتوفى عام ١٥١ الّتي اختصرها ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ ويمكن القول بثقة واطمئنان أنّ كلّ من كتب في السيرة بعد ذلك فقد نظر إلى سيرة ابن إسحاق ولم يتلق أحد منهم كتبه عن طريق الأخبار والمشافهة.

ولم يعاصر أحد منهم النَّبيﷺ، بل لم يعاصروا أصحابه أيضاً.

ويمكن جريان هذا الحدث المرّ في المجاميع الحديثية العامية أيضاً، بل تعرض الحديث الى محنة أكبر وبلية أعظم، مما تعرضت له السيرة. لأنَّ أول مدوّنة تخص الحديث قد تمَّ وضعها بعد كتابة السيرة بسنين طوال.

ونتيجة لهذا التوقف فقد فُسح المجال لدخول أحاديث موضوعة تشيد بأعداء أهل

البيت من جانب ومن جانب آخر تحريف الأحاديث الواردة في فضل أهل البيت وحذفها أو بترها.

ونأخذ المثال التالي نموذجاً على ما ذكرناه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ الله وَالله رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[1] آية نزلت في شأن أميرالمؤمنين‌عليه السلام ليلة مبيته في فراش رسول الله‌صلى الله عليه وآله بأمر منه، ولكن هذه الآية لم تسلم من تحريف معناها، ولم تسلم الفضيلة الّتي نزلت بها لعلي من لعب الأعداء، أصحاب النظرة المحدودة إلى الحد الّذي ذكره ابن أبي الحديد عن كتاب أُستاذه أبي جعفر الاسكافي في رد كتاب العثمانية للجاحظ أنّه يقول:

«قال أبوجعفر وقد روي أنّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَالله لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾[2]، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ الله**﴾[3]، فلم يقبل فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل فبذل له أربعمائة ألف فقبل وروى ذلك».[4]

ولكن سيرة ابن هشام وتفسير الطبري داسا على الإنصاف، فذكرا أنّ الآيتين نزلتا

---

١. البقرة (٢): ٢٠٧.

٢. البقرة (٢): ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٣. البقرة (٢): ٢٠٧.

٤. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧٣.

في حوادث السنة الرابعة وترتبطان «بيوم الرجيع» والحكاية طبقاً لما رواه ابن إسحاق:

إنّ جماعة أوفدتهم قبائل مكة إلى النَّبيﷺ فأسلموا وسألوا النَّبي أن يوفد معهم من يعلمهم القرآن، فأرسل معهم النَّبي قوماً من أصحابه، فلما خرجوا من عنده اعتقلوهم وحملوهم إلى مكة وباعوهم على أهل مكة بالدرهم والدينار، فقتلتهم قريش إنتقاماً لمن قتلوا منهم في بدر إلى أن يقول:

> «قال ابن إسحاق: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أي: خرج من عندك ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ أي: لا يحب عمله ولا يرضاه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: قد شروا أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله والقيام بحقّه حتى هلكوا على ذلك، يعني تلك السرية. قال ابن هشام: يشري نفسه: يبيع نفسه، وشروا: باعوا».[١]

وهذا مورد واحد من موارد التحريف الجمة والأحاديث الموضوعة الّتي وردت في المتون العامية الخارجة عن تحكّم الشيعة، والإلمام بمثل هذا النقص يحمل القارئ بالضرورة على النظرة الناقدة وعلى التأمل الواعي عند قراءة التاريخ ثم التناقض المبثوث في السيرة والناطق في متونها ونصوصها.

فإنَّ هذا التناقض زاد الجرح استعاراً والعلة داءاً وجعل إدراك الحقيقة في وضع

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١٨٤.

كهذا صعباً مستصعباً.

وعلى هذا الأساس نفزع إلى القرآن الكريم لنجعله ميزاناً وقسطاساً مستقيماً، يميز به الصدق من الكذب، ومبنانا هنا ـ أي في هذه البحوث ـ هو عرض السيرة على القرآن واستخراج التوافق والتطابق بينهما والإستناد إلى الآيات المجيدة في تصديق النصوص.

٢ ـ نظرة على نسيج جمعيّة المدينة:

خرج النَّبيﷺ من المدينة في حرب أُحد ومعه ألف من رجالها المسلمين، وهذا العدد ناظر إلى جميع الأفراد الذين يمكنهم حمل السلاح، ولكن مع طرح من مُنِعَ من الإشتراك لكهولة سنه أو ضعفه أو مرضه أو صغر سنه، حيث لم يأذن لهم النَّبي بالإشتراك، فإنَّ عدد الرجال المتواجدين في المدينة يقفز إلى أكثر من ألفي رجل، ومع افتراض أنَّ تعداد الجمعية في النساء تساوي الرجال فإنَّ عدد السكان لا يمكن أن يكون أكثر من خمسة آلاف رجل[١].

وهذا هو العدد الّذي يدعي أفراده الاسلام بغض النظر عمن يوجد فيهم من المنافقين والكافرين، لأنَّ الآيات يومئذ ناطقة بأنَّ أهل المدينة فريقان:

الفريق الأوّل: هم أولئك الذين سارعوا للعودة إلى الكفر لأول وهلة، وهم الذين يقول الله تعالى في حقّهم:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ

---

١. هذا العدد تخميني نظراً للقرائن الموجودة في حرب أُحد وليس العدد على نحو التحقيق.

آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾.[١]

الفريق الثاني: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾[٢] والمقصود من هذا الفريق إما اليهود أو المشركون، واستناداً إلى هذه الآية يمكننا تقسيم ساكني المدينة إلى أقسام ثلاثة:

١ ـ المنافقون، وهم أكثر الجماعات عدداً.

٢ ـ المشركون.

٣ ـ اليهود، وهم يعتبرون أعوان المنافقين المتواجدين في المدينة.

وحينئذ يمكن اعتبار جماعة المؤمنين الموجودين يومئذ في المدينة أقلهم عدداً، وهذا أمر واضح لا غبار عليه.

ويظهر من هذه الآية والآيات الأخرى التي من سنخها، أنَّ سكان المدينة لم يكونوا بأجمعهم مسلمين، ليس هذا فحسب بل المجتمع المدني في عصر النَّبيﷺ مجتمع ملفق، فهو مضافاً إلى من يوجد فيه من الجماعة المعلنين بالشرك يحتوي على فريقين أيضاً غيره، وهما المنافقون والمسلمون الذين يسارعون إلى الكفر لأوّل صدمة، وهم دائبون في الحركة نحو الشرك، وعلى الأقلّيّة المؤمنة فلا بدع حينئذ إذا قلنا بأنَّ حرب أُحد هي نتاج التلاقح بين نفاق المدينة وشرك مكة، وكذلك لا يستغرب الذهن من القول أنَّ الأقلّيّة المؤمنة ضعيفة الإيمان، والمغفلة هي تابعة لأكثرية أهل النفاق، إلى الدرجة الّتي

---

١. المائدة (٥): ٤١ .

٢. المصدر السابق.

حملتهم على وضع إيمانهم تحت الأقدام لئلّا يشاركوا في الانتظام بصفوف المقاتلين للمشركين[١]، وحملتهم على ترك مواقعهم القائمة في وجوه المشركين وإخلاء المواقع إغتراراً بمؤامرات المشركين[٢]، وحملتهم على الرضا بقتل النَّبيﷺ إلى الحد الّذي أصبح فيه المجتمع المدني مجتمعاً مهيئاً لاغتيال النَّبيﷺ، وعلى أساسٍ من ذلك قبل قيادة المنافقين.

حتى أنَّ الله تعالى نهاهم عن الوقوع في هذه الورطة في آيات كثيرة، وخوّفهم من ذلك، ونأتي بآية واحدة على سبيل المثال لنواصل بعدها البحث المتعلّق بها:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾.[٣]

وهكذا يحذر المسلمين من تقبل ولاية المنافقين، ولا بدع أن تصدر من هؤلاء القوم واقعة السقيفة وانحراف مسير الإمامة من وضعها الرباني، فليس ذلك بعيداً عن المتصوّر.

---

١. إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران (٣): ١٥٥).

٢. إشارة إلى الآية: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران (٣): ١٥٣).

٣. النساء (٤): ٨٨ـ ٨٩ .

فهؤلاء هم القوم الذين حملوا المجتمع ولاية المنافقين حتى بلغت بهم الحال بعد وفاة الخليفة الأول بمدة مديدة عند ما جاء الإمام الحسن بأمر أميرالمؤمنين عليه السلام ليمنع القوم من أداء سنة عمر في صلاة التراويح ـ وهي بدعته المأثورة عنه ـ أن تصايحوا والإمام يفرقهم «واسنة عمراهُ».

والشواهد القرآنية والروائية الدالة على رأينا في خصوص الحالة الإيمانية لمعاصري رسول الله من القوم أشدّ بكثير مما ذكرنا، وسوف نشير إلى بعضها خلال البحوث القادمة إن شاء الله.

٣ـ الموقع الجغرافي لجبل أُحد:

لون جبل أُحد أقرب إلى الحمرة، وهو يقع شمال المدينة، ويبعد عنها مسافة فرسخ واحد، واليوم قد اتصلت به الأبنية في مشروع توسيع رقعة المدينة فدخل في حدودها.

ومع أنَّ مكة تقع جنوبيّ المدينه إلّا أنّ جيش أبي سفيان أتاها من الشمال، والتقى بالمسلمين في سفح جبل أُحد؛ لأنَّ للمدينة موقعاً خاصاً، فهي محاصرة من جميع جهاتها بالجبال وغابات النخيل واختفت بينها، ولا طريق للوصول إليها بالنسبة لجيش أبي سفيان المكون من عدة آلاف من المقاتلين إلا باختراق هذه التحصينات الطبيعيّة والنفوذ إلى تلك الفسحة الواسعة الواقعة بين المدينة وجبل أُحد الواقع في شمال المدينة.

والتمركز بالعسكر هناك وإن كان ذلك يجعل أباسفيان وجيشه بمنأىً عن العودة إلى مكة إذا حدث ما لا تحسن عقباه، كما تفوت عليه فرصة الإمدادات القادمة من مكة، لكن من جهة أخرى إنَّ جهة الشمال تقل فيها الموانع الطبيعيّة، ويمكن إلحاق

الأذى بها بسهولة، ومن جهة ثالثة يمنع الجيش القادم بتعبئته المتميّزة وتجهيزاته الخاصّة ـ والمخدوع بحلاوة النصر المتصور في هذه الحرب والقادم لجني الفتوح والانتصارات والزهو والغلبة ـ من القدرة على التحرّك بسهولة في هذه الأرض المنبسطة الواسعة، وعلى النحو المطلوب.

مضيق جبل أحد:

قلنا إنَّ المدينة واقعة بين مجموعة من الموانع الطبيعيّة الّتي تنتشر حولها وتحاصرها، واكتسبت بذلك موقعاً خاصّاً، بحيث اضطرَّ أبوسفيان أن يدور حول الجبال وغابات النخيل المتصلة بالمدينة، ويلتف عليها من الشمال، بعد طيّ الطريق الواقع بين جنوب المدينة وشمالها، ويعسكر في موضع جبلي تنتهي الهضبة فيه بجبل أُحد، وينفتح الأفق بين يديه على صحراء مترامية الأطراف.

إنَّ جبل أُحد في شمال المدينة أبعد من الهضبة الّتي تتصل مرتفعاتها ببعضها البعض، بحيث تجعل من المدينة فصاً تدور به حلقة مفرغة[١] على النحو التالي، فقد أوجدت الطبيعة بين أُحد وبين باقي الجبال ثغرة، فلو أنَّ أباسفيان جعل هجومه على أصحاب رسول الله من هذه الجهة لكلّفه ذلك جهداً فائقاً وعنتاً مرهقاً، لأنّ ذلك يلزمه الدوران على الجبل والصعود إلى أعلى ثم الإنحدار من الجهة الأخرى المطلة على الشعب، وهذا يفوّت عليه يوماً إضافياً من الوقت.

وبناءاً على هذا فإنَّ هذه الثغرة الفاصلة بين أُحد وسائر الهضبة لا تشكّل خطراً

---

١. قيل في سبب تسمية هذا الجبل بأُحد: إنّه متفرّد عن باقي سلسلة الجبال الّتي تشكّل مجموع الهضبة كلّها. (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ٤/ ٩؛ السيرة النبوية: ٣/ ١٨).

مباشراً على المسلمين، نعم هناك تلّة صغيرة يمكن أن يباغت منها المسلمون وتعطي العدو موقعاً محصناً ممتازاً، وتسمى اليوم «بجبل الرماط» ويخرج من جبل أحد قرن تتصل به تلّة تكون خلف المسلمين عند ما يحتدم القتال ويحمي الوطيس ويستفيدون منها في مطاردة العدو بتلك الأرض المنبسطة.

ويمكن أن تكون التلّة عندئذٍ مكمناً للعدو، وبإمكانه مباغتة المسلمين من ورائهم، حين يبتعدون عنها.

وقد عمد النَّبيﷺ لدرء هذا الخطر المتصوّر عن المسلمين بأن اختار من الرماة الأشدّاء بقيادة عبدالله بن جبير جماعة، وأمرهم بملازمة التلّة ليسدّوا على العدو المنفذ، فلا يمكنه الإنحدار على المسلمين منها، وقال لهم: الزموا مواقعكم، وإن رأيتمونا غلبنا أو غلبنا العدو فلا تقدموا لنجدتنا أبداً[١].

---

١. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٠.

الفَصلُ الأوّل

قراءة وقائع ما قبل الحرب

زمان حدوث المعركة:[1]

وقعت حرب أُحد في النصف من شوّال السنة الثالثة من الهجرة ...[2]، وحدثت المعركة في ظرف كان المسلمون قد عانوا حرباً مثلها أو أشدّ منها في عام قبل هذا العام،

---

١. حدث التاريخ الهجري الإسلامي بعد وفاة النَّبيﷺ، وجُعل مبدؤه الهجرة النبويّة، وقد اشتهر عند الناس أنَّ ذلك قد تمَّ في عهد عمر باقتراح من أميرالمؤمنين‌ؑ، ويبدأ العام الهجري من شهر محرم الحرام عند العرب بناءاً على ما يدعيه أهل السنة والجماعة، وهذا القول مخالف لرواياتنا لأنّها تنصّ على أنَّ مبدأ الشهور كلّها هو شهر رمضان المبارك، لذلك جاء في الأدعية المرويّة بطرق صحيحة عن الإمام موسى بن جعفرؑ، أنَّ مبدأ الشهور كلّها هو شهر رمضان المبارك، وسواء جعل شهر رمضان أول الشهور أو شهر محرم الحرام فإنَّ العرب لم تسلم من مشكلة النسيء الّتي ذكرها القرآن الكريم في الآية ٣٧ من سورة التوبة المباركة، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾، ولقد اختلفت الأقوال في معنى النسيء وتعددت، ولكن ما قاله أبوالريحان البيروني في «الآثار الباقية» أقرب إلى الواقع بنظرنا، حيث كان العرب يهوون الحج في أشهر الخريف ويودّون أن يظل ملازماً لهذا الفصل، لأنَّ في هذا الفصل تجمع الثمار ويفرغ الفلّاح من جني حاصل زروعه، ويتمّ نزع وبر الحيوانات وصوفها فهم والحال هذه يذهبون إلى الحج بأيدي ممتلئة ويدخلون أسواق قريش بثقة فتمتلأ منهم جيوب تجّارها، ولمّا كانت الشهور القمريّه لا تثبت في الفصول، وفي كلّ ثلاث سنوات ـ أي في السنة الرابعة ـ يكون عندهم شهران لذي الحجة، ويقع شهر ذو الحجة الثاني في فصل الخريف، فألغى الله تعالى هذه المعادلة وقال في الآية ٣٦ من سورة التوبة المباركة: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً**﴾.

٢. قال الطبرسيؒ: وروى ابن أبي اسحاق والسدي والواقدي و ابن جرير وغيرهم قالوا: كان المشركون نزلوا بأُحد يوم الأربعاء في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وخرج رسول اللهﷺ اليهم يوم الجمعة، وكان القتال يوم السبت للنصف من الشهر. (**مجمع البيان: ٢/ ٤٩٧**).

وبطبيعة الحال سوف نقيم الحجة باستنادنا إلى الآية ١٢١ من سورة آل عمران المباركة، على أنَّ رسول الله توجّه نحو أُحد صباحاً من المدينة ووقعت الحرب في هذا اليوم نفسه. ونقل ابن كثير والبيهقي عن قتادة: أنّ غزوة أُحد وقعت في اليوم الحادي عشر من شهر شوال. (**دلائل النبوّة: ٣/ ٢٠١؛ البداية والنهاية: ٤/ ٩**).

وذكر الواقدي وابن سعد وابن الأثير وابن جرير: أنَّ غزوة أُحد كانت في اليوم السابع من شهر شوال. (راجع: **المغازي: ١/ ١٩٩؛ الطبقات الكبرى: ٢/ ٢٨؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٩؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٩**).

أي: في السابع عشر من شهر رمضان السنة الثانية من الهجرة[١] واستمرؤا النصر على قريش بالقرب من آبار بدر، وكانت هذه هي التجربة الأولى لهم.

حجّة المشركين:

كانت حجة المشركين في إشعال أتون حرب أُحد هي هزيمتهم في حرب بدر، إذ قد أُصيبت قريش في وقعة بدر بكارثة لم تمرّ بها من قبل، وتحمّلت من الخسائر الّتي لا تطاق أمراً باهضاً، وقد كانت ترى لنفسها السيادة على العرب، ولما حال الحول جمعت نفسها وسوّت صفوفها وجمعت جيشاً عرمرماً يتألف من الرجال والنساء وأحلافهم من القبائل الأُخرى، وتحركوا باتّجاه المدينة.

وكما يقول ابن إسحاق:

«إنَّ قريشاً خرجت بجميع عدّتها ومعها أحابيشها وهم أحلافها وأحلافهم من بني كنانة، وحملوا معهم النساء، يشجّعن الرجال على الثبات والحرب، ويحلن بينهم وبين الهزيمة».[٢]

وفعل مشركوا مكة هذا الفعل ثأراً لقتلاهم في بدر وقصدوا المدينة، ولكنّنا سوف نثبت فيما يأتي من الصفحات أنَّ الثأر للقتلى هو الحجة من أجل إفتعال الحرب، والهدف الأصلي لقريش هو وأد الحكومة الإسلامية الوليدة والقضاء عليها، بدعم من منافقي المدينة وإعانتهم، ومع تصفية النّبيﷺ وإقصائه عن مشاهد المعادلات الإجتماعية والسياسية في المنطقة يكونون قد وقفوا في وجه الإسلام وحالوا بينه وبين التوسّع والامتداد.

---

١. انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٢/ ١٤؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٢/ ١٢؛ الطبري، **التاريخ**: ٢/ ٤٤٦. وذكر بعضهم وقوع غزوة بدر في التاسع عشر من شهر رمضان. (ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٢/ ١٥؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٢/ ١٢).

٢. راجع: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٦٥ ـ ٦٦.

القسم الأوّل: موقف النّبيﷺ

علم النَّبيﷺ بتحركات العدوّ

يصوّر ابن هشام النَّبيﷺ بشكل وكأنّه على غير علم بتحركات العدو واستعداداته، ولا علم له باستراتيجيّة قريش الحربيّة، حتى جاء العدو على حين غُرَّة، وباغته بإقامة مواقعه على أبواب المدينة.

ولما أُبلغ النَّبيﷺ بنزول المشركين في ساحته رأى النَّبيﷺ رؤياً، فقصّها على الناس وقال لهم:

«إنّي قد رأيت والله خيراً رأيت بقراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة».[1]

ولكنّنا لا نرى هذا الرأي باستنادنا إلى الآية الشريفة حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[2]

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧.

٢. آل عمران (٣): ١٢١؛ قالوا بأنّ الآيات (١٢١ ـ ١٨٠) من سورة آل عمران المباركة ناظرة إلى حرب أُحد، وبالطبع يتضح هذا الموضوع بالنظر إلى خصوصيّات الآيات، ونأخذ هذه الآية السالفة نموذجاً على

إذ أسرع النَّبيﷺ صبحاً من دون أن يذوق للنوم طعماً إلى تنظيم صفوف المسلمين في أُحد، ولابدَّ لنا من إعتبار الوحي هو المصدر الأوّل لحرب أُحد، حتى وإن صححنا رسالة العباس إليه وإخبار جماعة له ممن استعلموا لأخبار حرب أُحد وأخبروه بها[١]، ولسنا منكرين أنَّ فئة في المدينة كان من عزمها أن تحجب أخبار الموقعة عن رسول اللهﷺ لكي يفقد النَّبيﷺ السيطرة على الوضع، فلا يقدر على أخذ القرار في الموعد المناسب، ونتيجة لذلك يُمهّد الطريق لانتصار المشركين. وهؤلاء وإن تزيّوا بزيِّ الإسلام إلّا أنّهم من المنافقين الذين ما زالوا على جاهليّتهم الأولى ينكرون اتصال الوحي بالنَّبيﷺ.

ونواجه ابن هشام عندئذ بالسؤال التالي:

إنَّ قريشاً قضت عاماً بأكمله تتجهز للحرب وتجمع له الجموع وتعقد المواثيق بينها وبين أحباشها وحلفائها، ورصدَّ المبالغ الطائلة لهذه الحرب، فكيف خفيت الحال على النَّبيﷺ هذا العام كلّه؟ أضف إلى ذلك، أنَّ الجيش خرج بصخب ومعه النساء والضعن ـ كما قالوا ـ وله كبكبة ودبدبة واستعداد حربي نادر في حينها، خرجَ ومعه

ما جال في أذهان أكثر المفسّرين، أنّها نزلت في موقعة أُحد، وتدل على الموضوع التالي، وهو أنّ النَّبيﷺ بعد أن خرج من أهله صبحاً جعل يسوي صفوف المجاهدين للجهاد، ويظهر من الآية أنَّ ساحة القتال المقصودة بالذكر بالقرب من المدينة، ومن جهة أُخرى، فانَّ النَّبيﷺ غاب عن أهله أياماً في غزوة بدر والأحزاب، وفي الحروب الأُخرى جرب المواجهة بينه وبين العدو خارج المدينة، ولم تكن حرب دامت يوماً واحداً إلّا حرب أُحد، لذلك يظهر اتصال بقية الآيات بحرب أُحد من هذه الآية الشريفة.

١. قال الواقدي: فلما أجمعوا المسير كتب العباس بن عبدالمطلب كتاباً وختمه واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول اللهﷺ يخبره أنَّ قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه. (المغازي: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) والجدير بالذكر أنَّ كتاب العباس هذا ليس مورد قبول للعلامة الجعفريﷺ.

الخيل والبغال والجمال من مكة، وعليه أن يقطع مسافة ثمانية أيام من مكة إلى المدينة، فكيف خفيت عليه أخبار كهذه ـ وهي لا تكاد تخفى على أحد ـ حتى يحلّ العدو على بعد أقدام من داره، ولا يخبر عن وجود العدو بساحته إلا بعد أن يرى ذلك الحلم فيخبر به أصحابه؟

تشكيل شورى الرأي:

بعد أن انتشر خبر وصول المشركين إلى المدينة للقتال فيها طلب النَّبيﷺ أصحابه للاجتماع في المسجد، وطفقوا يجيلون الرأي في كيفيّة معالجة الموقف ومواجهة العدو.

قال ابن هشام: ولما نزل المشركون بأُحد استقبل النَّبيﷺ أصحابه بوجهه وقال:

«فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

وكان رأى عبدالله بن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يرى رأيه في ذلك وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون إنّا جبنًا عنهم وضعفنا ... فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم الذين كان من أمرهم حبّ لقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بيته، فلبس لامته ... ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ولم يكن لنا ذلك.

فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا... فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل».[1]

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٧ ـ ٦٨.

القسم الثاني: توجه النّبي ﷺ نحو أُحد

زمان خروج النَّبي ﷺ والتناقض بين السيرة والقرآن:

بناءاً على ما زعمه ابن إسحاق؛ أنَّ النَّبيﷺ استشار أصحابه يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، وقد مات رجل من الأنصار فصلّى عليه رسول اللهﷺ ثم خرج عليهم واتجه ناحية العدو.[1]

وهناك من المؤرخين من أبعد في القول ونقل أحاديث أخرى، وبناءاً عليها فإنَّ النَّبيﷺ لم يخرج منها حتى استخلف عليها ابن أُمّ مكتوم يقيم لهم صلاة الجماعة وتوجه نحو أُحد، وفي الطريق أتى عليه الليل، فبات تلك الليلة بين المدينة وأُحد، وكان محمد بن مسلمة الرجل الّذي يحرس رسول الله.[2]

---

١. انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٦٧ ـ ٦٨. وروى ابن أبي اسحاق والسدي والواقدي و ابن جرير وغيرهم قالوا: كان المشركون نزلوا بأُحد يوم الأربعاء في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وخرج رسول اللهﷺ اليهم يوم الجمعة، وكان القتال يوم السبت للنصف من الشهر. (راجع: الطبرسي، **مجمع البيان**: ٢/ ٤٩٧).

٢. وانظر لاستخلاف ابن أم مكتوم: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٦٨. وعمدت كتب السيرة إلى اختلاق هذا الاستخلاف في غزوة تبوك عند ما استخلف النَّبيﷺ علياًﷺ على المدينة، فوضعوا لردّ ذلك رواية استخلاف ابن أم مكتوم.

والذين عمدوا إلى رواية هذه الحكايات، كان من الأجدر بهم أن يلقوا نظرة بسيطة على كتاب الله لئلا يضعوا الأجيال القادمة على تناقض أكبر من ناحية. ومن ناحية أخرى يحتفظوا بشيء مما بقي من ماء وجوههم، فلا يسكبوه بهذا التناقض.

لأنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، ومعنى الغدو هنا هو الخروج مع الضوء الأول والخروج مبكراً مع الصبح، فصريح كلام الله أنَّ تحرك النَّبيﷺ نحو أُحد كان عند الفجر، وأَجَّلَ تعديل صفوف المقاتلين، وأمّا الذين اعتبروا القتال واقعاً صباحاً فقد اخطأوا باستنادهم إلى هذه الآية، لأنَّ ذلك لا يطابقها ولا يتسق معها[٢] بل الله تعالى بيَّن في هذه الآية الكريمة ثلاث نقاط:

الأولى: خروج النَّبيﷺ للحرب في أوّل الصبح.

الثانية: خروجه من بين أهله.[٣]

والثالثة: أنَّ خروج النَّبيﷺ كان غرضه لأوّل وهلة تنظيم صفوف المقاتلين من المسلمين، وبناءاً على هذا تكون جميع القصص من إقامة صلاة الجمعة، وصلاة

وعن مبيت النَّبيﷺ في أُحد وحراسة محمد بن مسلمة له (انظر: الواقدي، **المغازي**: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧)؛ واختصاص ابن مسلمة بهذه المنقبة لأنّه من المقربين جداً لأبي بكر.

١. آل عمران (٣): ١٢١.

٢. قال ابن كثير: قال مالك: وكانت الوقعة في أول النهار .. الخ استناداً إلى الآية من آل عمران: ١٢١. (راجع: **البداية والنهاية**: ٤/ ٩).

٣. والمقصود بهم بيت ابنته فاطمةﷺ. (راجع: أحمد بن حنبل، **المسند**: ٥/ ٢٧٥؛ ابن عبدالبر، **الاستيعاب**: ٤/ ١٨٩٥).

النَّبيﷺ على الأنصاري الميّت قبل خروجه، والمبيت في الطريق قبل الذهاب إلى أُحد[١] إنما هو من صنع الذهن الخلّاق لكتاب السيرة من أهل السنة.[٢]

عدد المسلمين وعدّتهم:

بعد أن شاور النَّبيﷺ أصحابه ورأى إصرار بعضهم الشديد على الخروج من المدينة اتّخذ قراره على مواجهة العدو خارج حدود المدينة. ثم ذهب إلى بيته وأفرغ عليه لامة حربه، ثم خرج للمواجهة ومعه ما يقرب من ألف شخص من المهاجرين والأنصار وسلك سبيل «أُحد»، ولكن في أثناء الطريق نكص عبدالله بن أبي وأصحابه على أعقابهم وعادوا من حيث أتوا، وهبط عدد المسلمين برجوع هؤلاء إلى ٧٠٠ شخص.

رجوع عبدالله بن أبي:

رويت قصة رجوعه في السيرة بروايتين متفاوتتين، فقد عدَّ ابن هشام عبدالله بن أبي ممن وافق النَّبيﷺ على رأيه، ولكن الطبري عدّه من المخالفين للنَّبي بالرأي، وجاء في سيرة ابن هشام قوله:

---

١. يوجد في الآثار التاريخية في المدينة مسجد يدعى مسجد الاستراحة، ويقولون إنَّ المسجد لبني حارثة، ويرى بعضهم أنَّ النَّبيﷺ بات تلك الليلة وهو يريد أُحداً فيه، ولكن القرآن الكريم يخالف هذا الرأي حيث ينصّ على أنَّ خروج النَّبيﷺ كان في الغداة، وفي اليوم نفسه سوّى صفوف المقاتلين، وربما يقال: إنَّ النَّبيﷺ استراح ليلة في هذا المسجد ولكنّها ليلة لا ترتبط بحرب أُحد وليست من موضوعها مطلقاً.

٢. من أجل زيادة الاطلاع حول صلاة النَّبيﷺ الجمعة في مخرجه إلى أُحد راجع: الواقدي، **المغازي**: ١/ ٢١٣، وللاطلاع على صلاة النَّبيّ على جنازة الأنصاري راجع: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٦٧ ـ ٦٨، ومع احتساب الزمان الّذي تستغرقه قراءة خطبة الجمعة وإقامة صلاتها وإقامة صلاة الميت من بعدها فإنَّ خروج النَّبيّ لا يتم إلا إذا كان بعد الظهر، ولكن الله تعالى يقول في القرآن الكريم في الآية ١٢١ من سورة آل عمران ويصرح بما لا يقبل الشك أنَّ خروج النَّبيّ كان في الغداة، ومن ثم تعتبر هذه الروايات كلّها والمتناقضات من كتب السيرة مضادة ومناقضة للقرآن الكريم.

«... وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ... وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ... أخرج بنا إلى أعدائنا ... فقال عبدالله بن أبي بن سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم...

قال ابن اسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد انخزل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الناس ... فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال».[١]

وبناء على ما نقله ابن هشام في سيرته أنَّ النَّبيﷺ كان كارهاً للخروج من المدينة، ولكن عدداً من رجال المدينة أصرّوا على خروج النَّبي منها، بينما كان عبدالله بن أبي مخالفاً للخروج من المدينة فوافق النَّبيﷺ هنا برأيه على البقاء في المدينة. ثم يروي ابن هشام عن أبي إسحاق الرواية التالية.[٢]

وأما الطبري فيقول في تاريخه:

« ... إنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لمّا سمع بنزول المشركين من قريش وأتباعها أُحداً، قال لأصحابه: أشيروا عليَّ ما أصنع، فقالوا: يا رسول الله! اخرج بنا الى هذه الأكلب، فقالت الأنصار: يا رسول الله ما غلبنا عدوّ لنا قط أتانا في ديارنا ... فدعا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم عبدالله بن أبي بن سلول ولم

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٧ ـ ٦٨.

٢. قد مرّت توّاً ـ المترجم.

يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب ... فلما خرج رجع عبدالله بن أبي بن سلول في ثلثمائة ... وقالوا له: ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا، وقال الله عزّوجل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ﴾ فهم بنو سلمة وبنو حارثة همّوا بالرجوع حين رجع عبدالله بن أبي...».[1]

وجاء في تفسير الطبري أيضاً النص التالي مذيلة به الآية ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾:

«يعني تعالى ذكره بذلك عبدالله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وعن أصحابه حين سار نبيّ الله إلى المشركين بأُحد ... ويقول: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم».[2]

وهنا تناقضان فاضحان:

التناقض الأوّل: يقول ابن هشام عن عبدالله بن أبي أنَّ رأيه كان موافقاً لرأي رسول الله ﷺ ويريد البقاء في المدينة، ولكنّ الطبري يقول: كان يريد الخروج من المدينة.

التناقض الثاني: يقول ابن هشام إنّ عبدالله بن أبي خرج بصحبة النَّبي ﷺ من المدينة ثم بدا له الرجوع، فرجع من منطقة تقع بين أُحد والمدينة ومعه ثلاثمائة رجل من أصحابه، ولكنَّ الطبري يقول: إنه انشق عن المسلمين قبل خروج النَّبي ﷺ من المدينة.

---

١. الطبري، التاريخ: ٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

٢. الطبري، جامع البيان: ٧/ ٣٧٨.

وتنتج عن ذلك ثلاث نتائج:

النتيجة الأُولى: يلقي ابن إسحاق تبعة خروج النَّبيﷺ من المدينة بحيلة ذكيّة على عاتق أولئك الذين لم يحضروا بدراً، وكانوا يضمرون في نفوسهم حب الاستشهاد، ثم يقول من أجل أن يعفّي على آثار هذا الاختلاق «فقال رجال من المسملين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ممن كان فاته بدر ...»[1].

وأما أبوجعفر الطبري فقد نقل الواقعة عن السدي بشكل آخر بعد نقل ابن إسحاق، وفيه وإن لم يصرح باسماء النَفَر الذين أصرّوا على الخروج من المدينة، ولكنه يتضح لنا إلى الحد الّذي نعلم به أنّ أولئك النفر ليسوا من الأنصار.

روى الطبري عن السدّي:

> «أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لما سمع بنزول المشركين من قريش وأتباعها أُحداً، قال لأصحابه: أشيروا عليَّ ما أصنع؟ فقالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب، فقالت الأنصار: يا رسول الله ما غلبنا عدوّ لنا قطّ أتانا في ديارنا، فكيف وأنت فينا؟ ...»[2].

إلى هنا يمكن أن نعتبر الأقنعة قد زالت عن وجوه أولئك النفر الذين ألجأوا النَّبيﷺ إلى الخروج عن المدينة طبقاً لهذا الحديث، ومن الواضح أنهّم قوم من المهاجرين، ولكن لما كان من بين المهاجرين رؤوس تجب صيانتها بأيّ قيمة كانت،

---

١. ابن هشام، السيرة النبويّة: ٣/ ٦٧.

٢. الطبري، التاريخ: ٢/ ٥٠٣؛ جامع البيان: ٧/ ١٦٢.

حتى ولو تمَّ ذلك بتحريف التاريخ، لئلا يلحق بهم قثار من هذه العجاجة الثائرة، وأن تسلم جباههم من التلوث بالاتهام، من ثمَّ لم يصوب ابن إسحاق بحيلة معتادة السهم إلى المهاجرين.

النتيجة الثانية: بناءاً على ما قاله ابن إسحاق فإن عبدالله بن أبي قال في موضع بين المدينة وأُحد:

«أيها الناس أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا هاهنا».[1]

قال هذا وعاد ومعه جماعة ممن هم على مذهبه، واتخذوه قائداً لهم ولم يتمّوا الطريق.

ويواصل ابن اسحاق حديثه، فيقول:

«واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنّا لا نرى أنّه يكون قتال».[2]

وإذا ما قارنا بين الجملتين، الجملة الأولى: «ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيّها الناس»، مع الجملة الثانية: «لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال ...» فهما متناقضتان فكلتاهما تنسبان إلى عبدالله بن أبي، ووجه التناقض فيهما: أنَّ الجملة الأولى تفرض وقوع الحرب فرضاً حتمياً، إلا أنّ التفوق لمّا كان من المشركين من حيث العدد والعدّة والأهبة والتجهيزات، فإنّ القتال في ظرف كهذا يعدّ انتحاراً.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٨.

٢. المصدر السابق.

ولكن الجملة الثانية تنفي احتمال وقوع الحرب، وعلى هذا ينبغي أن تكون الجملتان لفئتين وليستا لفئة واحدة. ولكن ابن إسحاق خلط إحداهما بالأخرى، وعصبهما بجبين عبدالله بن أبي لكي يثبت أنّ المنافقين الذين ذمَّهم الله بقوله سبحانه في الآية ١٦٧ من سورة آل عمران والجملة ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ هم عبدالله بن أبي وأتباعه، ولكنه غفل عن أنَّ هذا الرجل قد تخلّى عن الحرب قبل نشوبها، وقبل أن يصل إلى ساحتها، إلا أنَّ هذه الآية يأولها الكثيرون في عبدالله بن أبي وأصحابه ويرونها نازلة فيهم.[١]

والواقع أنّ الوحي يرتبط بمن اشترك بالقتال، وسوف نأتي في الفصول القادمة على دلالة هذه الآية بصفة مفصلة ونوضحها للقارئ على هذا الأساس.

النتيجة الثالثة: إنَّ ملاحظة الظروف السائدة طبقاً للشواهد التاريخية تقضي بأنّه لا مناص من وقوع الحرب بعد خروج النَّبيﷺوأنّ حدوثها أمر حتمي ومائة بالمائة، لأنَّ المشركين قد عسكروا بالقرب من المدينة بثلاثة آلاف مقاتل، وسوف يزحفون على المدينة في الخطوة القادمة، والنَّبي خرج إليهم وعليه لامة حربه مستعداً للمواجهة، ومع هذا كلّه فإنَّ من المسلمين من يقول: لن تقع حرب أبداً، ولو علمنا بأنّها سوف تقع لما فارقناكم أو أسلمناكم، ولكنا إلى جانبكم لمساعدتكم.

ويمكن أن يستدل على استخلاص المنافقين للنتيجة هو علمهم بوجود مؤامرة في موضوع دفع الحرب.

وبعبارة أُخرى: أن من أطلق هذه الإشاعة هم قوم على علم تام بالمؤامرة، وفي هذا

---

١. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**: ٤/ ١٣ـ ١٤؛ وكذلك راجع: ابن كثير، **السيرة النبوية**: ٣/ ٢٦ ـ ٢٧.

المجال يصل قوم إلى أهدافهم من دون وقوع الحرب، وإلا فما معنى قول القائل منهم: نحن على علم بعدم وقوع الحرب رغم هذا النفير العام للمشركين واحتلالهم لحدود المدينة ومشارفها ومداخلها في ثلاثة آلاف مقاتل مجهز بالعتاد التام يومئذ.

فلنفترض أنّه قد تقرر في يوم معين إقامة مباراة كروية بين فريقين معيّنين، وأن بعضهم أخذ على نفسه إثارة فتنة ما بين الفريقين حتى لا تقام المباراة ولا يشاهدها المتفرجون، فلو أنَّ جماعة كانوا على علم بالمؤامرة فإنّهم حتماً ينكصون عن حضور المباراة ولا يحضرون، وإذا ما سئلوا عن سبب عدم حضورهم فإنهم سيقولون حتماً: إنّنا نعلم أنّ المباراة لن تقام ولو كنَّا نعلم بإقامتها لوافينا ميدان الرياضة حتماً.

ومن الواضح أنَّ من يعلم بحبك المؤامرة ينكص على عقبيه عن حضور المباراة إلا أنّه ليس له يد في حياكة خيوط المؤامرة، والمتصدي لها رجل غيره، وعليه حينئذ الحضور في عمق الأحداث، لأنّه يعتبر من العوامل الأصيلة في وضع هذه المؤامرة، ولابدَّ من وجوده في أعماق الحدث، لكي يديره على الوجه الّذي تستدعيه المؤامرة ويتزعم ذلك بما أُوتي من حول وطول.

وبناءاً على ما تقدّم وطبقاً لمجرى الأحداث التاريخية ولما صرّح به القرآن الكريم، فإنّ مؤامرة المنافقين في أُحد كانت على النحو التالي: أن يستدرجوا النَّبيﷺ للخروج من المدينة، وعند نشوب الحرب ينفضّون عنه، ويخلون الجهات المؤدية إليه عن المدافعين ليبقى وحده في وسط الحرب، ونتيجة لذلك لا تخلو الحال من أحد أمرين، إما أسره بيد المشركين أو إلجاؤه إلى الفرار، وحينئذٍ يبقى هائماً بالبراري والقفار، وإذا ما قُدّر له أن يصمد للقتال، فإنّه يقتل عندئذٍ لا محالة.

والآن يلح علينا هذا السؤال: مَن هُم الذين كانوا يشكّلون العلل الأصلية

والأسباب الحقيقية للمؤامرة؟!

يستفاد من مجموع المطالب المذكورة في السيرة أنَّ الرؤوس البارزة فيها هم المنافقون من المهاجرين، لأنَّ نظرية القتال خارج حدود المدينة تُعزى إليهم، وكان رأي الأنصار أن يقوم القتال داخل أسوارها وأن يبقى النَّبيﷺ داخلها.

ثم إنَّ الخارجين مع النَّبيﷺ لإدارة الفتنة والمؤامرة وتزعمها هم المهاجرون أنفسهم، وأمّا المنافقون من الأنصار فإنّهم لم يخرجوا مع النَّبي أصلاً، وإن كان المنافقون من الأنصار عالمين بالمؤامرة وراضين بنتائجها وما يستجد منها، لأنّهم بدون أن يتحملوا عبء الحرب أو تجرهم إلى قتل الأسرى، فقد يستريحون من شرّ النَّبيﷺ كما يزعمون، ولكن ذنبهم الأكبر هو العلم بالمؤامرة وإمدادها بالعون والمستلزمات وليس وضع تصاميمها وخرائطها، وأصر ذلك على من تولّى كِبَرَه وهم ذوو الصلات الثابتة مع قريش، الذين اندسّوا بالمجتمع المسلم وحملوا عليه لكي يتجسسوا للقرشيين على المسلمين، ولكن الأنصار ليس لهم أدنى رابط مع قريش.

ومجمل القول: إذا أردنا معرفة العوامل الأصلية للمؤامرة، فسوف نجدها في أولئك الذين تخلّوا عن النَّبيﷺ وتركوه وحده والحرب قائمة والقتال على أشدّه، وهم قوم لاذوا بالفرار لا يلوون على أحد، وسوف نجد عمر وأبابكر طبقاً لشواهد كثيرة أوّل الفارّين بعد نشوب الحرب من ميدان القتال، وهم الذين جرّأوا بقيّة الناس على الهرب فهربوا.

وهناك شواهد في القرآن أيضاً تدلّ على ذلك، وسوف نشير إليها في سياق الموضوع إن شاء الله تعالى.

القسم الثالث: تمركز النَّبي في أُحد

موقع النَّبي بإزاء جبل أُحد:

قال ابن إسحاق:

«ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أُحد في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد ... [ووجهه إلى المدينة]».[1]

حيث كانت هنالك هوّة تقسم الجبل إلى قسمين على شكل تكون الجهة اليمنى في جانب والجهة اليسرى في جانب آخر وكانت المساحة الواقعة بين المدينة وأُحد تحت أقدام المشركين، ولما حدثت المعركة كان على المشركين من أجل أن يواجهوا المسلمين وجهاً لوجه أن يولوا المدينة ظهورهم ويستقبلوا جبل أُحد حيث يتمركز المسلمون في سفحه.

اصطفاف الفريقين:

وكان «التكتيك» السائد في الحرب يومئذٍ أن يستقر الرماة في الصف الأول ومن ورائهم المشاة، وعلى الفرسان خلط خطوط العدو وتفريق صفوفه، وتبدأ الحرب بمواجهة الشجعان أحدهم للآخر. وليس لأحد الحق في التدخل بمعاركهم الحادثة

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٦٩.

من انتصر ومن اندحر، مضافاً إلى هذا اختار النَّبيﷺ من المقاتلين جماعة من الرماة للمحافظة على الثغرة الموجودة في جبل أُحد تمشّياً مع الموضع الجغرافي للمنطقة.

قال الواقدي:

«وجعل الرماة خمسين رجلاً على عينين عليهم عبدالله بن جبير، وقيل عليهم سعد بن أبي وقاص، قال ابن واقد: والثبت عندنا عبدالله بن جبير. وجعل رسول الله يصف أصحابه، وجعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وجعل عينين عن يساره... وجعل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يمشي على رجليه يسوّي تلك الصفوف ويبوّء أصحابه للقتال يقول:
تقدّم يا فلان وتأخر يا فلان، حتى أنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوّم بهم القداح».[١]

واستعد المشركون للقتال أيضاً:

«قال ابن إسحاق: وتعبّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل».[٢]

اشاعات المنافقين وانهيار معنويات المؤمنين:

ولما بلغت أخبار نزول المشركين من قريش في سفح جبل المدينة أُصيب بالهلع فريقان

---

١. الواقدي، المغازي: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٠.

من المسلمين، لكثرة نفوس المشركين وحسن استعدادهم وكمال عدتهم وتجهيزاتهم، وفقدوا قدرتهم على الدفاع وانهارت معنوياتهم.

وإنما صاحبهم ذلك، بسبب الإشاعات الّتي كان يروّجها المنافقون بينهم، والّتي بلغت بالمسلمين حافّة اليأس، فكانوا يقولون: ما بالنا نقاتل في حرب نعلم نتائجها ومصيرها من الآن، ونضع رقابنا تحت خد السلاح، لأنَّ الدخول في حرب كهذه بمثابة الانتحار؛ إذ أنه لو قدر لنا واستطعنا أن نساويهم بالعدد، فلسنا بقادرين على مساواتهم بالعدة وكمال التجهيزات.

وعلى هذا الأساس بذل المنافقون أقصى السعي لتقليل المقاتلين مع النّبيﷺ ما وسعهم ذلك، لكي يتسنّى لهم نقل خطواتهم الأُخرى بصورة أشدّ إحكاماً.

ثمَّ لما خرج رسول الله من المدينة أخذ في تسوية صفوف المسلمين وتعديلها أمام المشركين، ولكن القرآن يخص المؤمنين بالتسوية دون من عداهم طبقاً للآية التالية: **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ...﴾**[1] أي: أنه يميّز كلّ مؤمن بموقعه الخاص ويثبته فيه.

وبناءاً على منطوق الآية فإنَّ المنافقين لم يكونوا على استعداد للانتظام في صفوف المؤمنين، ولو كان كلّ من حضر مع النّبيﷺ مؤمناً لكان لسان الآية «تبوئهم مقاعد للقتال» أي: ينظّم صفوفهم كلّهم.

من ثمَّ يُعلم من ذلك أنَّ جماعة من المنافقين الذين خرجوا مع النّبيﷺ لتنفيذ

---

١. آل عمران (٣): ١٢١.

مؤامرتهم ما كانوا منذ البدء على استعداد للانتظام في صفوف المؤمنين. وهنا جعل الله التنظيم مقيداً بالمؤمنين، وابتدأ المنافقون يمارسون معاكساتهم للنَّبيﷺ من أجل تنفيذ الخطة، فلم ينتظموا في صفوف المقاتلين.

والأعجب من ذلك أنهّم استطاعوا جذب بعض المؤمنين إلى جانبهم والسيطرة عليهم، فكانوا كالمنافقين لعلمهم بالخطة يهربون من الانضمام إلى الصفوف ومن التنظيم ضمن دائرة القتال.

وصرّح القرآن بذلك على هذا النحو: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَالله وَلِيُّهُمَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[١]، وينبغي الالتفات هنا إلى أنَّ الله تعالى في الآيتين ١٢١ و١٢٢ وجّه الخطاب إلى النَّبيﷺ فقال: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ...**﴾ فجعل التسوية للمؤمنين دون المنافقين و﴿**إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ وأن يستولي الضعف والخور عليهما.

فما هو سرّ هذا الضعف؟ وما هو السبب في عزوفهم عن الاشتراك في صفوف المؤمنين للتسوية؟ وما هو السبب في عدم حضور المؤمنين في صفوف المقاتلين وعدم رضاهم بالانتظام وهم الذين خرجوا مع رسول اللهﷺ من أجل هذه الغاية؟

لا ريب في أنَّ لإيحاءات المنافقين من التأكيد على نفي وقوع القتال أثراً في ذلك، وكانت هذه الإيحاءات من أجل تنفيذ خطة إبعاد المقاتلين عن رسول الله وإفراده في ساحة الحرب.

---

١. آل عمران (٣): ١٢٢.

ويعد المنافقون هذه الإيحاءات ظاهر القضية. وأما واقعها فهو وضع رسول الله في ميدان الحرب وحده، وانفضاض القوم عنه، وتفرق المقاتلين من بين يديه، وبقاؤه وحيداً في حوزة المشركين، لذلك ألقوا إلى المقاتلين بأنّه لا داعي للانتظام في الصفوف والحضور في المقاعد التي عيّنها النّبيﷺ.

لذلك نبّه الله سبحانه المؤمنين بأنَّ وليّهم الله، فلماذا يستجيبون لوسوسات المنافقين، وأنَّ على المؤمنين التوكّل على الله وحده[1].

التذكير بنصر الله في حرب بدر:

ثم يذكرهم الله تعالى بنصره لهم في حرب بدر، ويخاطب المؤمنين فيقول:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[2]

حيث كان عدد المسلمين في حرب بدر ٣١٣، وكانت المسافة بين المدينة وآبار بدر أكثر من المسافة بين مكة وبين المشركين بمراتب، ويفتقر المسلمون حتى للسيوف إذ أنَّ أكثر أسلحتهم عسُب النخيل، ومع ذلك فقد نصرهم الله على المشركين، لذلك يذكرهم الله في أُحد بهذه النصرة الإلهية لكي يكونوا على يقين من أنّهم إن أطاعوا الله ورسوله، فإن الله ينصرهم في أُحد كما نصرهم في بدر.

وبهذا البيان ذي الوجهين يؤنبهم الله على عدم اعتمادهم عليه، وأخلدوا بالثقة إلى

---

١. قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والقضية حصريّة بحسب قوانين اللغة العربية ومفادها أنّه لا يجوز للمؤمن أن يتوكلَ إلاّ على الله، وهذه النكتة ينبغي التأمّل فيها لأنّها دقيقة.

٢. آل عمران (٣): ١٢٣.

مؤامرة المنافقين.

وفي آخر الآية توجد جملة مهمة وتعبير عجيب له دلالة ترمي إلى تأنيب المؤمنين على عدم توجههم إلى نصرة الله لهم، فبعد أن ذكّرهم الله تعالى بنعمة النصر في حرب بدر خاطبهم بقوله: واتّقوا الله وثقوا بنصره إياكم، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومعنى هذا التعبير الجامع، هو أنَّ شكر النعمة لا يتم إلا بالاعتماد على نصرة الله وعدم الالتفات إلى ايحاءات المنافقين، ولكن مع وعد الله الصادق من إرادته قطع دابر الكافرين واجتثاث أصولهم واستئصال شأفتهم ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[١].

فإنَّ المؤمنين ما زالوا يُخدعون بتمويه المنافقين، ويعتمدون على أحاييلهم ومكرهم أكثر من اعتمادهم على الله تعالى ونصره.

الوعد بنصر الله في حرب أُحد:

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر، كما نصرهم في حرب بدر، وخاطبهم بقوله:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.[٢]

ومع تحكيم النظر الدقيق في مفهوم هذه الآيات يتجلى لنا أنّها نزلت على النَّبيﷺ وأبلغها الأمة قبل نشوب حرب أُحد، والجملة الّتي توصل بما قبلها «بإذ» يستفاد منها

---

١. الأنفال (٨): ٨.

٢. آل عمران (٣): ١٢٤.

أنّ الجملتين متصلتان معنى، وأنّهما تحملان معنىً واحداً وتتحدّثان عنه.

وبناءاً على هذا، فإن النَّبيﷺ مع كونه قد استعاد لأذهان المؤمنين نصر الله لهم في حرب بدر، وذكّرهم أنَّ الله الّذي نصرهم قبل لا يعجز عن نصرهم اليوم، فثقوا بالله واعتمدوا عليه ولا تهنوا أو تضعفوا، فإنَّ شكر نعمة نصر الله لكم إنّما هو الاعتماد على نصره والثقة به؛ بينما الاعتماد على مؤامرة المنافقين كفران لتلك النعمة، مع هذا كله، فإنَّ جماعة من المؤمنين ما فتئوا متأثّرين بإيحاءات المنافقين.

وكان المؤمنون من البساطة بحيث فكّروا في أنَّ عدد الملائكة الذين سيرسلهم الله لنصرهم ينبغي أن يكون أكثر من تعداد جيش العدو. وكما أرسل في بدر ثلاثة آلاف ملك بإزاء ألف من الأعداء، فينبغي أن يكون عدد الملائكة هنا في حرب أُحد ـ وعدد الأعداء ثلاثة آلاف ـ أكثر من عدد المشركين، لذلك يقول الله تعالى:

﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.[1]

وفي هذه الآيات، يشد الله قلوب المسلمين، حيث خوت من أقوال المنافقين الباعثة على اليأس، ويعدهم بالنصر، ويقول لهم لو أن المشركين فاجئوكم بالمواجهة من دون استعداد، فإن الله سوف يمدّكم بخمسة آلاف من الملائكة، ولو أنّكم ذهبتم للمواجهة مستعدين فسوف يمدّكم بثلاثة آلاف لنصرتكم.

وجملة «من فورهم» تعني حالاً أو الآن أو الساعة، يفاجئكم العدو، بينما أنتم على

---

١. آل عمران (٣): ١٢٥.

غير استعداد للقائه، وتؤخذون على حين غفلة، فقد وعدكم الله أن يمدكم على هذه الحالة بخمسة آلاف ملك، بحيث يزيدون على تعداد المشركين بألفي فرد، ولكن في حالة الاستعداد وتسوية الصفوف وقصد المواجهة مع سبق التنظيم، فإنَّ الله يمدكم بثلاثة آلاف ملك. وفي النهاية يجعل هذا الوعد مشروطاً بصبر المسلمين وتقواهم فيقول: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

والنكتة القابلة للتدقيق هنا هي لفظ «مسوّمين» الّتي نعت بها الملائكة، فقد ذكرها الله تعالى نعتاً للملائكة أيضاً في حرب بدر، وأنزل آية تتضمن معناها فقال:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.[1]

مع هذا الفارق، حيث نعت الملائكة في حرب بدر بلفظ «مردفين» وفي حرب أُحد نعتهم بلفظ «مسومّين».

و«مردف» اسم فاعل من باب «إفعال» المتعدي، أي: إنَّ الله سمع استغاثة المؤمنين في بدر، فأمدّهم بألف ملك مردف لنصرتهم.

وأكثر المفسرين فسّروا لفظ المردف بنزولهم متوالين، بينما لفظ ردف من الأفعال المتعدية ومعناها: «حمل المرء غيره على دابته»، ولما كان مردف اسم فاعل فهو بحاجة إلى مفعول به، والمفعول به لمردفين هو «لكم»، وقد حذف من الكلام لدلالة القرينة عليه.

١. الأنفال (٨): ٩.

وبناءاً على هذا، فإنَّ المعنى الصحيح للآية «أنَّ الله أنزل ألف ملك ليحملكم كل ملك منهم على مركبه»، وإنما يصح تعبير أكثر المفسرين لو كانت الكلمة المتحدث عنها «رادفين» لا «مردفين».

والمعنى الّذي ذهبنا إليه من أنَّ الله تعالى يخاطب المسلمين أنّه بعث لهم ملائكة مردفين أي: حاملين لكم على مراكبهم، لأنَّ أكثر المسلمين استولى عليهم الهلع وضاق عليهم طريق الهرب، فكانوا يحدثون أنفسهم بانقطاع طريق النجاة عليهم لو قدّر للمشركين الهجوم، فالجملة تحكي صورة الهلع الّذي أصابهم، فإنّهم كانوا على خوف شديد من المشركين أين وكيف يذهبون؟ ومن أين الفرار؟ وأين يكمن طريق النجاة؟!

فيقول الله تعالى لهم لا حاجة بكم إلى فعل حدث ما، ولا تقدموا على إجراء عمل من الأعمال، بل ابقوا في أماكنكم وإياكم والهرب ونطمئنكم أنَّ الملائكة على استعداد في حال توجه خطر إلى حياتكم أن يحملوكم على مراكبهم ويبعدوكم عن مكان الخطر، فهذا ما كان من أمر الحرب في بدر.

وأمّا في وقعة أُحد فقد تغيّر أسلوب الكلام؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿مِنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، والمسوّم هو المعلّم عليه «سوّم نفساً» أي: أعلمها، وكما كان التعبير القرآني في حرب بدر يحكي عن خوف المؤمنين، فإنَّ التعبير هنا قد اتخذ وضعاً آخر حيث تغيّر خوف المسلمين إلى معنىً آخر.

وبعبارة أخرى: فإنَّ المؤمنين ـ على ما هم عليه من التمرس بالايمان ـ ومع علمهم، إلا أنَّ المؤامرة في إشاعة نفي وقوع قتال في هذه الحرب ـ وأنَّ المشركين جاؤوا لاستعراض القوّة دون إحداث قتال بينهم وبين المؤمنين ـ وهذا كله إنّما هو لأجل

إخلاء مواقع المؤمنين من الرجال وإفراغ الساحة الإسلامية من المقاتلين وإبقاء النَّبيﷺ وحيداً فريداً.

ولكنّهم مع ذلك كانوا خائفين على أنفسهم إذا ما حدثت حرب فأين يفرون؟ خشية أن يصيبهم الأذى من الحرب، فلو أنَّ الله لم يحقق لهم ما وعدهم ولم ينزل الملائكة، فإنَّ المشركين لا يملكون القدرة في تمييز الملك من الإنسان، فإنّهم سوف يطلقون سهامهم وليس بدعاً أن تقع فيهم.

فيقول الله تعالى لرفع هذا الخوف عنهم: لا تخافوا فإنّنا سوف نرسل ملائكة معلّماً عليهم، حتى إذا انطلقت سهام المشركين فإنّها سوف تقصدهم ولن تقع فيكم الرميّة ... فاثبتوا في مواقعكم، ولا يدور الفرار بخلدكم.

أضف إلى ذلك: أنّ إنزال الملائكة من الله تعالى ما هو إلا بشارة للمؤمنين ولتطمئن بذلك قلوبهم ويُربط جأشهم، يقول سبحانه: **﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لكم وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ العَزِيز الحَكِيم﴾**[١].

وهذا كله جرى **﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾**[٢] (وقطع الطرف قتل جماعة منهم).

وبعبارة أخرى: أنَّ وعد النصر الإلهي يتألف من جزئين: أحدهما وعد الله للمسلمين بالنصر بنزول الملائكة عليهم، والآخر خيبة أمل الكافرين. وبهذين الجزأين المهمين يجعل المؤمنين متشبثين بالأمل وهو مطل عليهم.

---

١. آل عمران (٣): ١٢٦.

٢. آل عمران (٣): ١٢٧.

الفصل الثاني

قراءة لحوادث الحرب

القسم الأوّل: قتال حاملي الألوية وانتصار المسلمين بسيف اميرالمؤمنين عليه السلام

حاملوا ألوية المسلمين:

كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله في الحرب ثلاثة ألوية: «اللواء الأعظم» وهو الأعظم والّذي يحمله أميرالمؤمنين عليه السلام دائماً، واللواء الثاني للمهاجرين، والثالث لجماعة الأنصار.

يقول ابن هشام:

«لما اشتد القتال يوم أُحد، جلس رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم تحت راية الأنصار».[1]

وهذا يعني أنّ للمهاجرين لواء أيضاً، لأنَّ عزل المهاجرين عن الأنصار من دون أن يكون للأنصار لواء معيّن، خلاف النظم الطبيعي لحروب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ إنَّ لجوء النَّبي صلى الله عليه وآله إلى راية الأنصار يدلّ على عدم ثقته بالمهاجرين، لأنَّ جلّ المنافقين منهم.

ويصر رواة السير على إثبات أنّ النّبي صلى الله عليه وآله أعطى اللواء في حرب أُحد لمصعب بن عمير، بينما يتنافى هذا القول مع الروايات الّتي تنص على أنّ حمل اللواء الأعظم بيد علي عليه السلام في حروب النَّبي صلى الله عليه وآله كلّها.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٧ ـ ٧٨.

ويتبيّن لنا من هنا حيث قتل مصعب بن عمير في مراحل الحرب الأولى، وأنّ النّبيﷺ أعطى اللواء من بعده إلى علي بن أبي طالبعليه السلام، وكان عليعليه السلام من المهاجرين أيضاً: أنّ اللواء كان بيد مصعب، ولكن لماذا دفعه النّبي إليه؟ الوجه في ذلك أنه من بني عبدالدار، وأعطاه النّبي الراية ليقاتل حامل راية قريش، لأنه من بني عبدالدار أيضاً.[١] ولما قتل ضمَّ أميرالمؤمنين راية قريش إلى اللواء الأعظم، فكان يحملهما معاً في الحرب.

حاملوا ألوية المشركين:

يقول ابن هشام:

«وقد قال أبوسفيان لأصحاب اللواء من بني عبدالدار يحرّضهم بذلك على القتال: يا بني عبدالدار إنّكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم. وإنّما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلّوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به وتواعدوه. وقالوا: نحن نسلم اليك لواءنا؟!».[٢]

وإنّما أراد أبوسفيان أن يستثيرهم فيستميتوا في حفظ اللواء، ويبعث فيهم روح النشاط والعزم ويجدّوا في حراسة اللواء، قال: فإمّا أن تكفونا لواءنا وإمّا أن تخلوا بيننا

١. لما استوت الصفوف في الحرب قال النَّبي ﷺ: من يحمل لواء المشركين؟ قيل: بنو عبدالدار، قال: نحن أحقّ بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا، قال: خذ اللواء، فأخذه مصعب بن عمير فتقدّم به بين يدي رسول اللهﷺ. (الواقدي، المغازي: ١/ ٢٢١).

٢. ابن هشام، السيره النبوية: ٣/ ٧٢.

وبينه، فنكفيكموه، فغضب بنو عبدالدار من كلام أبي سفيان حتى همّوا أن يبطشوا به وقالوا: «ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع».[١]

فلمّا قرعت طبول الحرب، والتقى الناس ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم، فقالت هند فيما تقول:

ويهاً بنو عبدالدار ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتّار[٢]

وتقول:

إن تُقبِلُوا نعانق ونفرش النمارق
أو تُدبِروا نفارق فراق غير وامق[٣]

قتل طلحة بسيف أمير المؤمنين عليه السلام:

ولما قرعت طبول الحرب برزت هند ومعها جماعة من نساء قريش في المعركة خلف حملة الألوية يضربن الدفوف ويشجعنهم.

وقتل مصعب بن عمير في ابتداء الحرب، ودفع النّبي صلى الله عليه وآله الراية الّتي كان يحملها مصعب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وشرع الإمام يجول في ميدان الحرب ويطلب المبارزة، وهو

---

١. المصدر السابق.
٢. المصدر السابق.
٣. المصدر السابق.

يقول: «أنا أبوالقضم»[١]، فتقدم إليه أبوسعد بن أبي طلحة وهو أوّل من حمل اللواء من بني عبدالدار فتضاربا، فضربه أميرالمؤمنين‌عليه السلام وطرحه أرضاً، ولم يجهز عليه بل تركه وانصرف، فقال له أصحابه: ما لك لم تقضِ عليه؟ فقال: لما دنوت منه كشف عورته، وقاسمني بالرحم الّتي بيني وبينه أن لا أقتله. وعلمت أنَّ هذه الضربة تكفي في القضاء عليه، وسيقتله الله تعالى.[٢]

وهنا من الجدير بالذكر أن ندل القارئ على التلاعب الّذي حدث في كتابة السير، وعن صنع المناقب لغير أهلها، حيث يضيف ابن إسحاق وهو يواصل نقل قتل طلحة، فيقول: « قتل أباسعد بن أبي طلحة سعدُ بن أبي وقاص».[٣]

وأما السهيلي في شرحه لسيرة ابن هشام ينقل حكايةً عن الكشي في تفسيره عن سعد بن أبي وقاص، يروي فيها بطولته في قتل ابن أبي طلحة من لسانه على النحو

---

١. ضبطها ابن هشام هكذا «أبوالقصم» والواقع أنَّ هذا الضبط مخالف للمشهور بين المحدثين، حيث ضبطوها بالضاد المعجمة «أباالقضم». (راجع: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**: ٤/ ٧٨). و يرى العلامة الجعفري أنَّ استعمال اللفظ الصحيح هو هكذا «قضم» وذكر الشاهد على صدق هذا الضبط، وهو رواية علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه سئل عن معنى قول طلحة بن أبي طلحة لما بارزه علي‌عليه السلام: يا قضيم، قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان بمكّه لم يجسر عليه أحد؛ لموضع أبي طالب، وأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلك إلى علي‌عليه السلام فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إذا خرجت فأخرجني معك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أميرالمؤمنين‌عليه السلام، فتعرّض الصبيان لرسول الله صلى الله عليه وآله كعادتهم، فحمل عليهم أميرالمؤمنين‌عليه السلام وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم فكانوا يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا علي قضمنا علي، فسمي لذلك القضيم. (علي بن إبراهيم القمي، **التفسير**: ١/ ١١٤). ويسمي الإمام نفسه في رجزه القضيم ليستعيد لهم ذكرياتهم المرّة في الأيام الخالية.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٧٧ـ ٧٨ والحكاية مترجمة.

٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٧٨.

التالي: «لما كفَّ عنه علي طعنتُه في حنجرته فدلع لسانه إليَّ كما يصنع الكلب ثم مات».[١]

وهذه الحكاية يفتخر بها سعد ويعدها من مناقبه، أن يهجم على عدوّ مصروع وقد داهمه الموت وهو يجود بنفسه، ويقتله ليس بالسيف والخنجر ـ لأنَّ هذين السلاحين يستدعيان الدّنو من العدو، وعادةُ سعد أن يبتعد ما استطاع عن ذلك، على سبيل الاحتياط، فلا يدنو من المشركين ولا من أعداء الله ـ بل بالرمح الّذي يجعل بينه وبين الصريع ما يقارب الأمتار الثلاثة، فينقض على ابن أبي طلحة انقضاض الأجدل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ويضيف إلى معجم مناقبه صفحة ذهبية جديدة، ليكمل فيما يأتي من الزمان عند ما يشارك في مسألة اغتيال النّبيﷺ ليلة العقبة، ويشارك في الشورى الّتي أحدثها عمر لتعيين الخليفة، ويختم بها معجم مناقبه وافتخاراته.

النصر البدائي في الحرب بسيف أميرالمؤمنين‌عليه‌السلام:

قلنا بأنّ أباسفيان كان غير جذل بالنظام العسكري لقوّات بدر، ويرى أنّ سبب الهزيمة أتى من ضعف حاملي الألوية، وكان يعتقد أنّ اللواء إذا أعطي إلى حامله فإنَّ في قتله يقع اللواء على الأرض، فإنَّ المقاتلين فقدوا معنوياتهم ولاذوا بالفرار، لذلك كان يصر على أنَّ اللواء ينبغي أن يتعهد بحمايته عدد من الناس، فأخذ بنو عبدالدار على أنفسهم أن لا يتخلوا عن اللواء ولا يتركوه يقع على الأرض.[٢]

ولكن عند ما بدأت الحرب وشرع الناس في المبارزة وجهاً لوجه، وقد تقدّم الشجعان والأقران يتقارعون بالسيوف، وأخذ أميرالمؤمنين‌عليه‌السلام اللواء بعد مصرع

---

١. السهيلى، الروض الأنف: ٥/ ٣١٨.

٢. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٢.

مصعب بن عمير (رضي الله عنه) وقضى على طلحة وهو أوّل من حمل اللواء للمشركين، ثم راح يتعقب حملة الألوية واحداً واحداً حتى قضى على عشرة منهم وكان حادي عشرهم مولى بني عبدالدار وهو عبدٌ لهم محرر أقبل إلى ساحة القتال، فألحقه الإمام بأسياده، وما كانت قريش تظن أن يقتل منها أحد عشر رجلاً بهذه المدة القصيرة، ولا احتملت أن تخسر هذه الجماعة من أبطالهم الأشداء، فما كان أمامها إلا الهرب والفرار، وتبعهم المسلمون من الخلف يقتلون ويستلبون غنائمهم وثيابهم.

تحقّق الوعد الإلهي:

عندئذ تذكرت فئتان من المسلمين كانتا قد فقدتا معنوياتها من أثر الإشاعات المغرضة الّتي كان يطلقها المنافقون، واستعاد الله للمؤمنين ذكرى النصر في حرب بدر ووعدهم بالنصر في هذه الحرب، فيقول في تحقق وعده: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[1]

و﴿**أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ**﴾ أي: النصر ﴿**يُرِيدُ الدُّنْيَا**﴾ أي: العافية، و﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**﴾ أي: أبعدهم عنكم وأبعدكم عنهم و﴿**لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ أي: بعد العصيان و﴿**عَفَا عَنكُمْ**﴾ أي: عن المؤمنين.[2]

---

١. آل عمران (٣): ١٥٢.

٢. هذه ألفاظ مزجها المؤلف في ترجمة الآية إلى الفارسية تعين على فهم الآية الكريمة، لذلك آثرت ذكرها على هذه الكيفيّة.

وتقدمت الإشارة منّا إلى أنّ الآيات في السورة المباركة من آل عمران إلى ما قبل هذه الآية قد كانت بصدد بيان حوادث ما قبل الحرب، وإن كانت هذه الآيات قد نزلت بعد الحرب، ولكن مضمون الحوادث وخطاب النَّبيﷺ للمؤمنين وقع قبل الحرب.

وقد مرّ بيان ذلك فيما تقدم أنَّ الله تعالى وعد المؤمنين في الآية ١٥١ أن يوقع الرعب في قلوب المشركين لكي يكون ذلك جزءاً من وعد النصر ليغيث المؤمنين بذلك ويغلبوا المشركين.

ولكنّه يقول في هذه الآية: إنَّ الله وعدكم وصدق وعده الّذي وعدكم به قبل الحرب، والنصر لكم ما بقيتم ثابتين في الحرب تقاتلون وتردون كيد العدوّ حتى فشلتم وقد دبَّ الرعب في قلوب المشركين.

وبناءاً على هذا يكون صدق وعد الله هو إيجاد الرعب في قلوب المشركين وفرارهم قبل أن تجري الرياح بما لا يشتهون.

وقد أشارت السيرة إلى هذه الحقيقة بنحو من الأنحاء، ولكنّهم كما جرت عادتهم سعوا جاهدين في ستر الحقائق وأن تبقى قيد الإبهام، ولا تبين للرائين أعمال المنافقين وشيطنتهم.

ففي حرب أُحد أراد المنافقون أن يقبضوا على رسول اللهﷺ قبض اليد قبل أن تبدأ الحرب ويسلمونه إلى قريش، وبدأت الحرب.

وقد بيّنا سلفاً وذكرنا قبل ذلك أنّ كتّاب السيرة رووا عن أبي سفيان أنّه كان يرى

بأنّ هزيمة قريش كانت على أثر فقدان أصحاب الألوية في بدر، حيث لم يكن في حوزتهم رجال شجعان ملتزمين لحمل اللواء، فهزمت قريش من أجل ذلك، من ثمَّ جاء في حرب أُحد بحملة اللواء معه من بني عبدالدار وكان يحرضهم يوم أُحد على القتال.[١]

وابن هشام يعود إلى ذكر مجريات الحرب مجدداً بعد سرده حوادث الحرب وما جرى في مبدئها على نحو التفصيل تقريباً، فيرجع إلى حادثة قتل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لحامل اللواء طلحة.[٢]

وتعترف السيرة إلى هنا أنّ الإمام قصد حملة الألوية وقتلهم حتى إذا أباد حملة ألوية قريش عن بكرة أبيهم وهلكوا بأجمعهم بسيفه تفكك نظم جيش مكّة واستولى على المشركين الرعب من هذا الشاب الشجاع القرم الّذي لم يحسبوا له حساباً وغفلوا عنه وهم يضعون خطط الحرب، فلم يجدوا أمامهم إلا الهزيمة، فانهزموا.

وهذا نفسه هو الوعد الالهي الّذي وعد به المسلمين: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾.[٣]

---

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٢.

٢. و يظهر خبث ابن هشام في سرده لواقعة أُحد أنّه لم يذكر الأحداث على نحو التسلسل، وجاء بالسياق ملفقاً لئلا يعطي الذريعة إلى أحد، ومن ثمّ تراه ذكر الحوادث غير مرتبة.

٣. آل عمران (٣): ١٥١.

القسم الثاني: صفحة أخرى من تاريخ حرب أُحد

هزيمة المسلمين وثبات أمير المؤمنين عليه السلام:

بعد تحقّق الوعد الإلهي نشأت صفحة أخرى من تاريخ وقعة أُحد، فإنَّ المسلمين لما شاهدوا هزيمة المشركين من المعركة ساورتهم مطامع الغنائم، فتسابقوا إلى حيازتها حتى اضطربت صفوفهم وفقدوا الوحدة العسكرية للمقاتلين.

والقرآن الكريم واصل سرد حديث أُحد على النحو التالي: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1].

وأمّا كتب السيرة فقد جرت على خلاف القرآن، إذ اعتبرت هذا المقطع من الآية ناظراً إلى عصيان الرّماة الذين أُوكلت إليهم المحافظة على ثغرة الجبل، كما قال ابن كثير مذيلاً على الآية:

> «وإنّما عني بهذا الرماة، وذلك أنَّ النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم أقامهم في موضع ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا، فلما غنم النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وأباحوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعاً

---

١ آل عمران (٣): ١٥٢.

فدخلوا في العسكر ينهبون ...».[١]

وقال ابن هشام أيضاً في سيرته:

«قال ابن اسحاق: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: تخاذلتم وتنازعتم في الأمر، أي: اختلفتم في أمري، أي: تركتم أمر نبيّكم وما عهد اليكم، يعني الرماة ...».[٢]

وبالطبع نحن لا ننكر أنّ الرّماة خالفوا رسول الله ﷺ بتركهم مواقعهم، ولكن «الفشل» لا ينظر إلى هذه الناحية، والّذي يمعن في تدبر كلام الله يدرك أن المخاطب بقوله ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ هم جماعة موجودة في ميدان المعركة، ويراد منهم القتال، ولكن حراس الثغرة في الجبل لا عمل لهم إلّا الحراسة، فليس عليهم قتال حتى يضعفوا فيه، لأنّ النّبي ﷺ أمرهم أن لا ينجدوا المقاتلين حتى في حال انهزامهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾[٣] وما يفهم من الآية أنّه يقول: إنّ النصر حليف لكم ما دمتم في ميدان القتال بإذن الله تعالى[٤]، وظل النصر ملازماً لكم إلى أن فشلتم.

وندرك من سياق هذا التعبير أنّ الله تعالى نسب الوهن إلى قوم كانوا يقاتلون في

---

١. ابن كثير، السيرة النبوية: ٣/ ٤٧. هذه الحكاية تكشف لنا ثقة المسلمين برسول الله من أي نوع هي؟؟!

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١٢١.

٣. آل عمران (٣): ١٥٢.

٤. كلمة «بإذنه» لها ظرافة خاصة في التعبير، فإنّ الله تعالى يحكي عن عيسى بن مريم، فيقول: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: أنّ هذا العمل المخالف للسنن الطبعيّة إنّما جرى بإذن الله تعالى، ومعنى بإذنه في هذه الآية أنّ الله تعالى ألقى الرعب في قلوبهم خلافاً لسير الأحداث، بقدرته وإذنه في حين كان معهم الشجعان و ذوو النجدة وكان باستطاعتهم أن يرفعوا العلم بعد هويه، ولكن الله ألقى الرعب في قلوبهم فانهزموا.

ميدان الحرب، هذا وإن كان حراس الثغرة قد ارتكبوا إثماً مبيناً بتركهم مواقعهم من الجبل وعصيانهم أمر رسول الله ﷺ، ولكن الله تعالى مع ذلك لا ينسب الوهن إليهم.

وأنتم ترون هنا أنّ كتّاب السيرة عمدوا إلى المغالطة وتحريف القرآن مع أنّهم ذكروا في البدايات أنَّ حراس الجبل لم يكونوا ملزمين بالقتال ولا عليهم عبئه على الإطلاق، خلا أنّهم عند ما يصلون إلى معنى الآيات القرآنية خلافاً لصريحها، يلقون تبعة الوهن في الحرب على عاتق هؤلاء.

المسلمون في بوتقة الامتحان:

ومن الموارد الأُخرى الّتي لعبت بها أيدي كتّاب السيرة وحرفتها من القرآن الكريم، معنىً آخر رفيع في الآية ١٥٢ من السورة المباركة (آل عمران) حيث يقول: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

ومن له أدنى فهم باللغة العربية يعلم أنَّ ضمير «كُم» يعود إلى المخاطبين في الآية، وهم المسلمون، وضمير «هُم» يعود إلى المشركين، وعلى هذا الأساس يكون معنى الآية: «إنما صرفناكم عن المشركين لنضعكم موضع الامتحان والاختبار ولم يكن ذلك بالجبر والإلجاء، بل بسلب التوفيق منكم عن استمرار الحرب». وبعبارةٍ أخرى: أنَّ الله تعالى صرف وجهه عن المؤمنين ليبتليهم، وليعلم هل أنَّ المسلمين يثبتون على عامل الإيمان أو عامل الخوف والنفاق.[1]

---

١. في موضع آخر يقول الله تعالى في سورة التوبة الآية ١٦: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾ وفي الآية ١٤٢ من سورة آل عمران يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

ولكن رواة السيرة كتبوا الحدث على عكس ما وقع، فقد قالوا: إن المشركين انصرفوا عن القتال مع ما جنوه من النصر وقالوا سنعيد الكرة عليكم في عام قابل. ولكنّ التدقيق في الآية يميط اللثام عن أمور واقعية كثيرة.

وتفسير هذه الواقعة من الآية الشريفة مع الالتفات إلى ظاهر كلام الله وقواعد التفسير، وبعيداً عن التأثر بانحرافات السيرة يكون على هذا النحو:

إنَّ الله تعالى أكّد وعده بحرف «قد» و«اللام» الذين يأتيان للتأكيد، وقال: إنَّ النصر معكم ما دمتم في ميدان القتال تحاربون مستقيمين، وقد أنزل الرعب في قلوب المشركين بإمداداته الغيبيّة وبقتل أصحاب الألوية، خلافاً للوقائع الطبيعية، بحيث أدّى ذلك إلى هزيمتهم. ولكنّ المنافقين حين عقمت مؤامراتهم ولم تعط المرجوّ منها صاحوا بقتل النَّبي «قتل محمّد»، فذهل من يقاتل بين يديه وانكشفوا عنه وقصدوا جبل أُحد يحتمون به، وفي هذه الأثناء دبّ الوهن في المؤمنين الذين تعاقدوا مع المنافقين ففشلوا، وتحقق مصداق قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، وعزمت فئة أُخرى على صحبتهم بعد شكهم في وعد الله لهم بالنصر وإيحاءات المنافقين ليسلموا ولو حيناً من الزمان، فكانوا مصداق قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ ولكن فئة أُخرى جادلوهم وقالوا لهم لا تغرّنكم إيحاءات المنافقين، فإنَّ النصر لنا، وأشار الله إلى مجادلة هؤلاء لهم بقوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ وهذه الفئة هم القوم الذين ثبتوا في ميدان الحرب حتى استشهدوا وهم أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

ثم فزع الفريقان للنزاع والجدال أيبقون أم يتركون الساحة؟ لأنَّ الله تعالى قد سلب منهم التوفيق لكي يبتليهم ويمتحنهم، فيقول: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ولكن

الله عفى عنهم لأنّهم ندموا على فعلتهم، لكونه تعالى يعامل المؤمنين على أساس اللطف والفضل، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَالله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونستطيع أن نستنبط النتيجة مما تقدّم وهي: أنَّ المسلمين لم يبدر منهم في أُحد عمل موجب، ولم يحرزوا أيّ تقدم أو موفقيّة، بل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وحده هو الّذي قتل أصحاب الألوية، فاحتل الهلع والرعب قلوب المشركين، وانهزموا صاغرين، وأما المسلمون الّذين تعاقدوا مع المشركين فقد انكشفوا عن النَّبي صلى الله عليه وآله وتركوه مفرداً حين صكّ مسامعهم نداء «ألا أنّ محمّداً قد قتل» الّذي انطلق من جهة المنافقين، وفاءاً بعهدهم مع المشركين، وأشعروا إخوانهم بمجريات الأحداث، ولذلك قصد خالد بن الوليد وأصحابه النَّبي صلى الله عليه وآله بالشر، ولمّا رأى المشركون كفة الحرب قد مالت نحوهم هجموا على النّبي صلى الله عليه وآله بأجمعهم وقتلوا أعوان النّبي صلى الله عليه وآله وجلّهم من الأنصار.

تناقض روايات السيرة في تصوير الأحداث:

ترك المسلمون ساحة الحرب بعد انتشار إشاعة قتل النَّبي صلى الله عليه وآله وهربوا ناحية الجبل، وذكر الله فرار المسلمين في عدد من الآيات من سورة آل عمران فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

وعند إعمال بحث اجمالي يتجلى لنا أنّ رواة السيرة وقعوا في تناقض فاحش عند نقل هذا الحدث.

---

١. آل عمران (٣): ١٥٣.

انظر الطبري، فإنه يرويه على هذا النحو:

« ... لمّا كان يوم أُحد ولقي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم رجالاً بإزاء الرماة، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلمّا لقي القوم هزم المشركين حتى رأيت النساء قد رفعن عن سوقهنّ وبدت خلاخيلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبدالله: مهلاً أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم فأبوا، فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوههم فأُصيب من المسلمين سبعون...».[١]

والتفتوا جيداً فإنَّ هذا الحديث ما هو إلاّ شذرة من شيطنة أهل السنة، ومن تحريف القرآن، لأنّه في الوقت الذي أوضح القرآن، أنَّ المسلمين انصرفوا عن المشركين، فإنَّ ابن كثير في سيرته قد قلب المعنى بتغيير بسيط في اللفظ «صرفت وجوههم» أي: ظلوا حيارى لا يدرون إلى أين يفرون وأين يتجهون، ويقول في موضع آخر:

«فلما أخلَّ الرماة تلك الخلة الّتي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم فضرب بعضهم بعضاً، فالتبسوا وقتل من المسلين ناس كثير، وقد كان لرسول الله وأصحابه أوّل النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وَجَالَ المسلمون جولة نحو الجبل ولم

---

١. الطبري، التاريخ: ٢/ ٥٠٧ـ ٥٠٨.

يبلغوا حيث يقول الناس الغار... وصاح الشيطان قتل محمّد، فلم يُشكّ فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنّه حق حتى طلع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم... ».[١]

ويروي ابن كثير مجدداً حديثاً آخر وهذا هو متنه:

«فأقبلوا منهزمين، فذلك الّذي يدعوهم الرسول في آخرهم، فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم غير اثني عشر رجلاً...».[٢]

وأما ابن هشام فيروي الحادثة بهذه العبارات والتصوير الغريب:

«انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ [قوموا] فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم».[٣]

إلى هنا اتفقت الروايات بنحو من الأنحاء على غياب النَّبيﷺ من بين الهاربين، أي لا يوجد معهم النّبيﷺ، وأنّه مقتول أو ثابت في ميدان الحرب، وفي هذا الحديث الآخر جرى التصريح على أنّ جماعة من المسلمين عزفوا عن الحرب، لاعتقادهم بقتل النَّبيﷺ، وقد اجتمعوا في مكان واحد. وهناك حديث آخر يوجد في كتب السيرة

---

١. ابن كثير، **السيرة النبوية**: ٣/ ٤٧.

٢. ابن كثير، **السيرة النبوية**: ٣/ ٥٠.

٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٨٨.

وفيه التصريح بوجود النّبي ﷺ بين ظهراني المسلمين، بل في بعضها أنّه سبق القوم إلى الصعود على جبل أُحد.

ونشير إلى روايتين عن ابن إسحاق:

«فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب معه أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب [عليه السلام] وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام رضوان الله عليهم والحارث بن الصمه ورهط من المسلمين».[1]

وقال ابن اسحاق:

«ونهض رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها وقد كان بدّن رسول الله وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض صلى الله عليه [وآله] وسلم لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيدالله، فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: كما حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يومئذ يقول: أوجب طلحة حين صنع برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ما صنع».[2]

وكما ترون فقد وقع كتّاب السيرة في تناقض عند نقلهم للحوادث ذات الصلة

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٨٨ ـ ٨٩.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٩١ ـ ٩٢.

بهروب المسلمين، ومع وجود التناقض في السيرة فإنّنا نولّي وجوهنا شطر القرآن ونستنبط حقيقة الواقعة من ظاهر آياته، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

و«تصعدون» فعل مضارع من باب «إفعال»، وجذره المشتقّ منه «صعد»، وهو متعد، ولكن أخذه من باب «إفعال» يوجه دقة القول إلى الوجهة الصحيحة.

و«صعدت الجبل» معناه واضح، أي: أنّك صعدته بنفسك مختاراً، أما «أصعدت الجبل» فإنّها تعني صعودك عليه بجهد واستثقال.

وبناءاً على هذا فإنَّ الفعل إذا كان متعدياً احتاج إلى فعل وفاعل ومفعول به، والآن نأخذ مثالاً على ما قلنا في «صعدت الجبل» فـ «صعد» فعل و«ت» فاعل و«الجبل» مفعول به.

وعلى هذا الأساس يكون الفعل «تُصعدون» في الآية الشريفة معناه أنّ المسلمين حمّلوا أنفسهم الصعود على الجبل، وما من حاجة تدعو إلى ذلك؛ لأنّهم قد أحرزوا النصر في الحرب، ولكنهم يبغون من هذا العمل أن يفردوا جماعة المقاتلين من المؤمنين ليستقبلوا سيوف المشركين وحدهم، وتكون العاقبة ظهور المشركين عليهم.

وبالطبع أنّ صعودهم على الجبل بجهد واستثقال ليس معناه عجزهم الجسماني عن ذلك، وإنّما الغرض منه أن يُصعدوا وإن لم تدع حاجة إلى هذا، بل أجبروا أنفسهم

---

١. آل عمران (٣): ١٥٣.

عليه، ولم يكن ذلك إلّا من أجل التعاقد الّذي جرى بينهم وبين المنافقين واعتمادهم على مؤامرتهم.

وفي نفس الوقت كانوا وهم يصعدون على الجبل لا يولون أحداً اهتمامهم، ليس هذا فحسب، بل لو أنّ واحداً من المسلمين قد قعد به العجز أو الجراح عن النهوض لسارعوا إلى الإجهاز عليه أو رميه من أعلى الجبل.

وزيادة في الإيضاح نقول: إنَّ التقهقر إلى الوراء نوعان:

النوع الأوّل: أن ينقلب على عقبيه، ويعاكس مسيرة أصحابه ويوليهم ظهره ويولي وجهه ناحية أُخرى بجميع جسمه.

النوع الثاني: أن يقتصر على تولية وجهه إلى الوراء، وهذا هو معنى التعبير بـ (تلوون) أي: توجّهون وجوهكم إلى الوراء.

وبناءاً على هذا، فإنَّ الصورة الّتي يرسمها القرآن المجيد عن حادثة فرار المسلمين في أُحد هي أنّ المسلمين «يصعدون» إلى الجبل منهزمين من ميدان القتال من غير حاجة تلجئهم إلى هذا الإصعاد، بحيث انسلخوا عن الإنسانية، فلا يعبئوا بضعيف منجدل على الأرض.

وتكملة سياق الآيات تؤيد هذا المطلب، فإنّ الله تعالى عند ما يستعيد على أذهان المسلمين واقع هزيمتهم في أُحد، فإنّه يقول: ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾ أي: أنّه يدعوهم إلى العودة للقتال ومواصلته. وإذا أردنا أن نماشي كتّاب السيرة ونقول معهم كما قالوا من أنّ النّبيﷺ ـ وحاشاه ـ كان في المنهزمين، فينبغي أن يكون خطاب

الله على هذه الشاكلة: «والرسول يتبعكم في أخراكم» أو «والرسول يأمركم» أي: يأمركم بالفرار.

ولما كان قول الله تعالى كما تلوناه: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي: عند ما ألجأتم أنفسكم للرقي على الجبل، ورحتم لا تعبأون بأحد ممن هو على مذهبكم، وكان رسول الله ﷺ يدعوكم للمقاومة والقتال، ومع ذلك لم تلقوا بالاً لندائه أيضاً، فلذا قال الله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي: أثابكم على فعلكم هذا ثواباً حسناً وهو الفرار والهزيمة[١]، وأضاف إلى غمّكم غمّاً، وهذا يعني أنّ العمل الّذي أجراه المسلمون ظناً منهم أنَّ فيه السلامة لهم والحماية ومصاحبة المنافقين بعد رسول الله لهم قد أبدلهم الله بِهِ غمّين أحدهما ضياع الغنائم من أيديهم، والثاني قتل إخوانهم وأهليهم وذويهم.

وبعبارة أخرى: لو أنّ المسلمين، بل المؤمنين لم يستجيبوا لمؤامرة المنافقين، وينحازوا إليهم بعد تأثرهم بها، وظلوا يقاتلون المشركين ثابتين ثبات الجبل، ويقاومون كما ينبغي، لانتصروا على المشركين وغلبوهم، وكان حاصلهم في ذلك مضافاً إلى ما نالوه من الغنائم أنّهم لم يتجرعوا مرارة الهزيمة ولا خيبة الفرار والانكسار.

وفي ختام المعنى الّذي قررته الآية الكريمة ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا

---

١. أثابكم: أعطاكم الثواب، والغرض من ذكره هو ذمهم والهزء منهم، كما يجري بين العامة عند ما يخفقون في البيع أو الشراء وتصيبهم الخسارة ويجانبهم الربح فإنّهم يؤنبون الخاسر ويسخرون منه بطريقة المدح الّذي يراد به الذم، كقول القائل له: إنّها معاملة جيدة وأنت ربحت ربحاً كثيراً، وعلى هذه الوتيرة يبكتونه ويؤنبونه، والله تعالى سلك مع المؤمنين هذا المسلك، فراح يذمهم بطريق المدح ويقدح فيهم ويؤنّبهم.

تحاولوا نحت الأعذار غير الموجهة لله في سبيل تبرير أعمالكم، لأنَّ الله تعالى لا يخدع بأقوالكم وهو العليم بمدى عمق نيّاتكم وصدق أهدافكم وصحّة أعمالكم.

تأنيب المؤمنين على الفرار من الزحف:

بيّن الله تعالى نتيجة أعمال المؤمنين في أُحد وقرّعهم على سوء تصرفهم، وفي ضمن ذلك عرض لهم عدداً من النكات، فقال سبحانه: **﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾**[1] أي: كنتم لشدّة خوفكم كالمتفرّجين.

وقد جاء في كتب أهل السنة في التفسير في ذيل هذه الآية روايات عدّة بهذا المضمون: وهو أنّ أصحاب النّبيﷺ كانوا بعد بدر يتمنّون حرباً أُخرى مثلها ليستشهدوا وينالوا أجر الشهيد، ولذلك اختبرهم الله وابتلاهم في حرب أُحد، وقد فرّ جماعة منهم فعاتبهم الله بهذه الآية.

وللتدليل على ذلك إليكم هذا المقال من تفسير الطبري شاهداً على ما نقول، قال:

«لأنَّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ممن لم يشهد بدراً كانوا يتمنون قبل أُحد يوماً مثل يوم بدر، فيبلوا الله من أنفسهم خيراً وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر، فلما كان يوم أُحد فرّ بعضهم وصبر بعضهم حتى أوفى بما كان عاهد إليه قبل ذلك، فعاتب الله من فرّ منهم، فقال: **﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾**».[2]

---

١. آل عمران (٣): ١٤٣.

٢. الطبري، جامع البيان: ٧/ ٢٤٨.

ولكن هذه الآية لها وجه آخر من الواقعية، وليس فيه علامة على امتحان المؤمنين بقول الله في هذه الآية: أنتم قبل بدء حرب أُحد قد رفعتم الشعارات الدالة على الرغبة في الشهادة، حتى اضطر النّبيﷺ إلى الخروج من المدينة، فما الّذي جرى حتى تركتموه وحيداً في وسط المعركة ورحتم تتفرجون على سيرة المعركة؟!

والوجه المذكور هو أنَّ المشركين كانوا قد وردوا المدينة وضربوا مضاربهم وخيامهم واتخذوا لهم مواقع بالقرب منها، ولا فرق هنا بين أن يبقى المسلمون في البلد أو يخرجوا عنه للدفاع أو القتال، لأنَّ المشركين تطال أيديهم المدينة على كلا الحالين، وكان النّبيﷺ يود لو أنّه مكث في المدينة وأدار المواجهة مع المشركين فيها، لأنَّ المواقع الدفاعيّة في المدينة أعظم تحصناً منها في خارجها، أمّا المنافقون فقد ائتلفوا مع المشركين وتآمروا أن يتركوا النَّبيﷺ عاجزاً عن الدفاع منفرداً بين الأعداء بعد أن ينفضّوا عنه، ويستميلوا معهم عدة من المؤمنين البسطاء وضعيفي الإيمان ليكونوا معهم، وحجّتهم في ذلك الرغبة في الشهادة والشوق إلى الموت في سبيل الله واستعجال المواجهة مع المشركين، واستطاعوا أخيراً أن يكسبوا إلى صفوفهم عدداً من البسطاء، حتى ألجأوا بالحاحهم النّبيﷺ على الخروج إلى العدو، ونال المنافقون التوفيق في إجراء أُولى مراحل مؤامرتهم.

وكذلك استطاعوا أن يجيدوا تمثيل المرحلة الثانية، بفرارهم من المعركة وإفراد النَّبيﷺ في ساحة القتال، ومعهم جماعة من ضعفاء الإيمان واليقين، لذلك خاطبهم الله تعالى فقال: إنّكم أنتم أنفسكم الذين رفعتم شعار الشهادة قبل الحرب، فلماذا نكصتم على أعقابكم عند ما برز الموت ظاهراً لكم ولمستموه بأيديكم، وهربتم كلّ

مهرب وحدتم عن القتال وانهزمتم لا تلوون على أحد، وأصبحتم تتفرجون على المعركة من مكان بعيد؟!

اميرالمؤمنين عليه السلام المدافع الوحيد عن النَّبي صلى الله عليه وآله:

ما يزال النقاش محتدماً حول مَن بقي يدافع عن النّبي صلى الله عليه وآله بعد الهزيمة، ثابت القدم رابط الجأش؟ وتأرجح العدد بين المؤرخين حول من بقي مدافعاً عن النّبي صلى الله عليه وآله لم يهرب في الهاربين بين الواحد إلى الثلاثين، ولو أنّ هؤلاء السبعمائة الذين حضروا الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله ادّعوا الثبات مع النّبي صلى الله عليه وآله فلا عجب في ذلك، لأنّ الفرار في الحرب وترك الجهاد ذنب لايغفر، لاسيما والنَّبي صلى الله عليه وآله وحيد بين الأعداء، وقد دار حوله العدو من كلّ جانب وصار من الموت على مقربة.

أضف إلى ذلك كونه مفخرة تتسابق إليها الرجال، مما يحمل المرء على الكذب، ولكنّ الحقيقة أنّه لم يقف مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عليّ وحده، ولم يدافع عنه سواه، أجل ثبت وحده والقوم جميعاً هربوا ولاذوا بالفرار، والباقون مع النّبي صلى الله عليه وآله إمّا قوم حاصرهم العدو فلم يكن فيهم غناء لرسول الله، لأنّهم أهمّتهم أنفسهم، فهم دائبون في البحث عن مخرج من هذا الطوق لينطلقوا في الهزيمة وينجو بأنفسهم، وإمّا هم كحمزة عليه السلام الّذي لم يفرّ وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا ليدافعوا عن النَّبي صلى الله عليه وآله، لأنهم مشغولون بأنفسهم عند ما أصبحوا في قبضة العدو، وكل جهدهم مبذول لإيجاد مخرج لهم من هذه الورطة، وأخيراً عجزوا حتى عن إنقاذ أنفسهم، ونالوا الشهادة وبلغوا السعادة.

أما الرجل الوحيد الّذي أهمّه أمران، وجدَّ في الدفاع عنهما ـ وهما: حفظ نفسه من

العطب، والدفاع عن النّبيﷺوحمايته، وكان هذا هو أهمها ـ واعتبرهما توأمين في الحفظ والدفاع، فليس هو إلّا أميرالمؤمنينعليه السلام.

حنكة اميرالمؤمنينعليه السلامبرواية ابن أبي الحديد:

وقد روى ابن أبي الحديد عن محمد بن عبدالله الزاهد اللغوي[1]، وكذلك عن محمد بن حبيب[2] في أماليه رواية هي شاهد صدق من لسان عدوّ عليعليه السلام.

قال ابن أبي الحديد:

«إنّ رسول اللهﷺ لما فرّ معظم أصحابه عنه يوم أُحد كثرت عليه كتائب المشركين وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة... فقال رسول اللهﷺ: يا علي اكفني هذه الكتيبة، فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارساً، وهوعليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً حتى قتل [منهم جماعة]... فقال جبرئيلعليه السلام لرسول اللهﷺ: يا محمّد إنّ هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى، فقال رسول اللهﷺ: وما يمنعه وهو مني وأنا منه، فقال جبرئيلعليه السلام: وأنا منكما، قال: وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء لا يرى شخص

١. أبوعمرو محمد بن عبدالله الزاهد اللغوي غلام ثعلب من الذين لهم كتب في فضائل يزيد بن معاوية، ولم يكن ليروي الحديث قط إلّا أن يكون في مناقب يزيد فإنه يرويه.

٢. محمد بن حبيب المتوفى ٢٤٥ من المحققين ذوو الاطلاع الواسع، وله كتابان قيّمان، أحدهما ويدعى «المنمق» والثاني ويدعى «المحبر» وإن لم يكن ضخماً إلا أنه يحوي علماً كثيراً، ويكفي في مدحه أنه من الممكن العثور فيه على حقائق جمة في قبال الأكاذيب الّتي وضعها أهل السنة في التاريخ والسير والروايات.

الصارخ به ينادي مراراً: «لا سيف إلاّ ذو الفقار[1] ولا فتى الا علي»، فسئل رسول الله ﷺ عنه فقال: هذا جبرئيل... ».

وقال ابن أبي الحديد بعد أن نقل هذه الرواية:

«قلت وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين، وهو من الأخبار المشهورة. ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق ورأيت بعضها خالياً عنه».[2]

المناقب الموضوعة للصحابة:

تمتلئ كتب أهل السنة بالفضائل المصطنعة والمناقب الموضوعة لجماعة من الصحابة في حرب أُحد، بينما أجمعت هذه الكتب كلّها على أنّ النَّبي ﷺ أعطى اللواء الأعظم بيد علي عليه السلام بعد شهادة مصعب بن عمير، وبدأت المرحلة الأولى من الحرب بالبراز وجهاً لوجه من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لأصحاب الألوية من بني عبدالدار، وانتهت الحرب بقتلهم كلّهم وبهزيمة المشركين، وكان نصر المسلمين في هذه الآونة بفضل أميرالمؤمنين عليه السلام وجهاده.

وفي المرحلة الثانية بعد أن أخلى الرماة ـ وعددهم أربعون ـ مواقعهم، من أجل

---

١. جرت العادة أن تكون للسيف شفرة واحدة، والفرق بين السيف والخنجر والصمصامة أنّ للأخيرين حدّين، من ثم يعمد ضارب السيوف إلى تقصيره، وكذلك الصمصامة إن كانت من حد واحد، ولو صنعوا للسيف حدّين فإنّه يكون ثقيلاً في اليد، وكان سيف أميرالمؤمنين له حدّان، ووضعوا له فقرات في وسطه ليقوى ويتماسك، وهي نابتة فقرة اثر فقرة، لذلك سمّي ذو الفقار، وبما أنّه ثقيل الوزن فلا يقوى على حمله أحد إلاّ صاحبه، أما كونه ذا طرفين فإنّه من وحي الخيال لا غير.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

النهب والسلب وحيازة الغنائم، حمل خالد بن الوليد على المسلمين من وراء ظهورهم وهم غافلون، وعاد المشركون الذين هزموا إلى ميدان القتال وكرّوا بعد الفرّ على المسلمين.

ثم أخذت المؤامرة دورها بعد شيوع إشاعة قتل النَّبيﷺ من أفواه المنافقين وهزيمة المؤمنين. وفي هذه المرحلة هرب أهل النفاق من بين يدي النَّبيﷺ وتركوه وحيداً ولم يباشروا قتالاً أبداً، وتبعهم من كان مؤمناً اقتداءاً بهم في الفرار وتأثراً بإشاعاتهم. وتصدى لهم الله سبحانه وتعالى ليحفظ حياة المؤمنين فألقى عليهم نعاساً تغشاهم.

ولم يكن ليدافع عن رسول اللهﷺ في هذا الظرف العصيب إلّا أميرالمؤمنينؑ مع ما ألمّ به من الجراحات الكثيرة الفاغرة، فإنّه ما فتئ يدور حول النَّبيﷺ ويبعد المشركين عن حضرته، إلى أن أعجبت هذه النصرة وهذا الجهاد الملائكة (وعضوا على أنامل التعجب)[1] ونادى جبريل بين السماء والأرض بقول: «لافتى».

فلم يبق مكان لطلحة والزبير والآخرين الّذين ادّعيَّ لهم أنّهم مصداق المؤمنين في الآية ١٥٤ من سورة آل عمران[2]، وألقى الله عليهم النعاس لحفظهم من التلف.

وفي هذا الجزء البدوي من الآية حيث يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ

---

١. تعبير واصطلاح فارسي ليس له نظير في العربية، وإنّما يقول العرب: «وعضّوا على إصبع الندم».

٢. أحبّ أن يعلم القارئ أنَّ شيخنا العلامة رحمه الله ذكر سياق التاريخ نقلاً عن المؤرخين، وإلاّ فينبغي عليه أن يفرد الزبير عنهم، لأنه كان آنذاك من أهل البيت، وله مواقف حميدة شهد له بها أميرالمؤمنينؑ إلى أن أفسده الجبت والطاغوت بترشيحه للخلافة، ونشأ ابنه عدو الله (ما زال الزبير منا حتى نشأ ابنه المشوم عبدالله).

﴿الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾[١] وردت أحاديث في كتب أهل السنة جلّها مروي عن أبي طلحة[٢] وبعضها عن الزبير، وتجدون أدناه بعضها مروياً مثالاً على ذلك:

عن أبي طلحة أنّه قال:

«غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه».[٣]

وهذا الحديث ورد في أكثر كتب السير بتغيير طفيف، وهو متفق عليه عند المحدثين من أهل السنة.

ونورد ما ذكره الترمذي مثالاً على ذلك:

«... أنّ أباطلحة قال: غُشينا ونحن في مصافنا يوم أُحد... يومئذ قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط من يدي وآخذه ... هذا حديث حسن صحيح».[٤]

وروى البخاري في صحيحه عن أبي طلحة قال:

«كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط فآخذه».[٥]

---

١. آل عمران (٣): ١٥٤.

٢. أبوطلحة الأنصاري هو الرجل الّذي في بيته قصة شرب الخمر مع كبار الصحابة ، وهوالرجل الّذي أمره عمر بالوقوف على الباب، ليمهل أهل الشورى ثلاثة أيام فإن لم يختاروا واحداً منهم ضرب أعناقهم بأجمعهم.

٣. البخاري، **الصحيح**: ٦/ ٣٨.

٤. الترمذي، السنن: ٥/ ٧٩.

٥. البخاري، **الصحيح**: ج٥، ص٩٩؛ وراجع: النسائي، **السنن**: ١٠/ ١٠٥؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٣٨٣؛ ابن أبي شيبة، **المصنف**: ٧/ ٣٧٠.

ويقول الطبري: عن مخرمة قال:

«سألت عبدالرحمن بن عوف عن قوله عزَّ وجلَّ: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾** قال: ألقي علينا النوم يوم أُحد».[١]

وروى الطبري أيضاً عن أبي طلحة وهشام بن عروة، عن عروة بن الزبير، عن الزبير، أنّهما قالا:

«لقد رفعنا رؤوسنا يوم أُحد فجعلنا ننظر، فما منهم من أحد إلا وهو يميل بجنب جحفته، قال وتلا هذه الآية: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾**».[٢]

وقال السيوطي:

«وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي ـ وصححه ـ والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه وابن جرير والطبراني وأبونعيم والبيهقى معاً في الدلائل، عن الزبير بن العوام، قال: رفعت رأسي يوم أُحد فجعلت انظر وما منهم أحد إلا وهو مميد تحت جحفته من النعاس، فذلك قوله: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾**، وتلا هذه الآية: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾**.[٣]

---

١. الطبري، **جامع البيان**: ٧/ ٣١٨؛ الطبراني، **المعجم الكبير**: ١/ ١٣٥. كذلك انظر: السيوطي، **الدر المنثور**: ٢/ ٣٥٣.

٢. الطبري، **جامع البيان**: ٧/ ٣١٩.

٣. السيوطي، **الدر المنثور**: ٢/ ٣٥٣.

وقد ورد هذا الموضوع في أكثر من ثلاثين مورداً من أحاديث أهل السنة عن الزبير وعن عبدالرحمن بن عوف وأبي طلحة.

وببذل أدنى توجه إلى هذه الأحاديث يظهر كذبها جلياً، لأنَّ غلبة النوم:

أولاً: إنما ساورهم لأجل أمنهم بعد الخوف والاضطراب والغمّ، وهذا واضح من قول الله تعالى، فلا يمكن أن يُدّعى بأنّه حدث والحرب قائمة، لأنَّ طروّ النوم على الإنسان باعث له على الضعف والتراخي، فلا بدع أن يكون ذلك ذريعة لغلبة عدوه وهزيمته أمامه، وإذا قُدِّر أن يكون النوم باعثاً على أمن المسلمين في وسط المعمعة، فينبغي أن يطرأ على عدوهم لا عليهم.

وثانياً: إنّ التعبير بلفظ النعاس دليل على عمق النوم، وبناءاً على هذا لايمكن أن يغط المرء في نوم عميق، وفي أثناء ذلك يشعر بوقوع سيفه من يده، ويشعر أيضاً بما يجري على مَن حوله من أصحابه.

وبناءاً على هذا، فإنَّ كذب هذا الحديث ظاهر من القرائن المحفوفة به. مضافاً إلى تصريح القرآن بخلاف ذلك، إذ كيف يمكن لهؤلاء ـ وهم في نومهم العميق جداً، بحيث يسقط السيف من أيديهم فلا يحسون به ـ وفي نفس الحال يدافعون عن النّبي ﷺ ويحمونه، والحرب قائمة؟!!

ثم أنّ القرآن صرّح ضمن ذلك بقوله: ﴿أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ فعلم منه أنّ النوم عرض لقوم دون قوم، وأن طائفة منهم فحسب عرض لها النوم، ولكن في هذا الحديث جعل الراوي النوم يغشاهم جميعاً، وهو شاهد آخر على كذب هذه الموضوعات.

ولو أنّنا حكّمنا القرآن في معمعة هذا الوضع للأحاديث، وقارننا بين الآيات الشريفة النازلة في حرب أُحد وبين روايات السيرة المروية عن النَّبيﷺ، لرأينا تناقضات واضحة تظهر من خلال هذه المقارنة.

وينبغي على أولئك الرواة لأحاديث البطولات الخارقة لبعض الصحابة في كتبهم أن يجيبونا على سؤال بديهي وهو: أين وقعت هذه البطولات، وفي أيّ موضع وزمان حدثت هذه التضحيات؟

فإن كانت في مبتدء الحرب، فإنَّ نصر المسلمين يومئذٍ كان ببركة الإمام ؈ وبفضل سيفه الّذي قضى على أصحاب الألوية واحداً إثر الآخر، فدبَّ الرعب في الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل ولاذوا بالفرار.

وإن كانت في المرحلة التالية فإن أحداً منهم لم يكن أهلاً ساعتئذٍ للصمود في وجه المشركين إلاّ علي بن أبي طالب؈ وكلّ فرد منهم أهمته نفسه وسعى هارباً في نجاتها.

وإن كانوا من الفارين فإنَّ الله تعالى قسمهم إلى فئتين، إذ أنّهم إمّا من المنافقين وإمّا من المؤمنين....

فإن كانوا من المنافقين، فإنَّ دعوانا ثابتة.

وإن كانوا ـ كما هم يزعمون لأنفسهم ـ من المؤمنين، فإنَّ الله غشاهم بالنعاس ليحفظهم.

إذن على هذا المنوال لا يبقى موضع يتيهون به أو ينفقون به فخرهم.

والنتيجة من هذا كلّه أنّ جميع هذه المناقب والفضائل والفخار ما هي إلا صنع

الذهن الخلّاق للكذب والوضع من كتّاب السيرة من أهل السنة، الذين خصوا بالعناية هؤلاء الصحابة وآثروهم بموضوعاتهم منهم، أولئك الذين كان لهم الأثر الفعّال في إنجاح البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، ونحن هنا نشير إلى مثال واحد منهم.

مثال واحد من المناقب الموضوعة للصحابة:

قال ابن إسحاق:

«ونهض رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وقد كان بدَّن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض صلى الله عليه [وآله] وسلم لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبدالله، فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ كما حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه، عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير ـ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: أوجب طلحة حين صنع برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ما صنع».[١]

وجاء ذكر طلحة في موضع آخر من السيرة حيث يقول:

«ووقع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في حفرة من الحفر الّتي عمل أبوعامر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ورفعه

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٩١ ـ ٩٢.

طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائماً.

ومصّ مالك بن سنان أبوأبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ثم ازدرده، فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: من مسّ دمي دمه لم تصبه النار».[١]

ثم قال ابن هشام:

«وذكر عبدالعزيز بن محمد الدراوردي [ينقل حديثاً بدون سند]: أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله».[٢]

إنّ كذب هذه الروايات ووضعها أوضح معنى من أن تحتاج إلى بيان، فالحديث الأول وضعوه ليستدلوا به على هرب النَّبيﷺ وحاشاه لينجو بنفسه، وليس أولئك الصحابة وحدهم الذين لجأوا إلى الجبل.

والحديث الآخر وضعوه ليثبتوا لطلحة منقبة، وإلا فإنَّ الحفرة الّتي احتفرها أبوعامر كانت في ميدان الحرب وليست على الجبل.

ولو أنّهم قالوا: إنّ النَّبيﷺ وقع فيها في أوّل الحرب، فإنَّ ذلك يناقض قولهم إنّ النّبيﷺ وقف تحت ألوية الأنصار، وأعطى اللواء الأعظم لعلي بن أبي طالبؑ، فجاهد الامام حتى قتل أصحاب الألوية واحداً إثر الآخر، وهزم المشركون، لماذا؟! لأنَّ النَّبيﷺ كان في هذه الجولة تحت لواء الأنصار وعليؑ بنفسه يجزر أصحاب

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٨٥.

٢. المصدر السابق.

الألوية واحداً واحداً حتى هزم المشركين وحده.

وإن قالوا: إنّ ذلك في المرحلة الثانية من الحرب، فإنّ المسلمين انشقّوا إلى فئتين: المنافقين وقد فرّوا، والمؤمنين وقد خدعوا بالمنافقين وفرّوا أيضاً، ولكنّهم حين عرفوا واقع الحال وعادوا إلى أنفسهم غشاهم الله بالنعاس أمنة.

ونحن لانقول بدخول طلحة في فئة المنافقين لئلا نسيء إلى قدسيّة صحابي، ولكنّنا نسأل هذا السؤال وهو: إن كان طلحة يغطّ في نوم عميق فكيف أخرج النّبي من الحفرة؟

حقيقة نعاس المؤمنين:

بعد هزيمة المسلمين ألقى الله عليهم النعاس فقال: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**.[١]

والآن يلح علينا هذا السؤال، أين وقعت هذه الواقعة، ولماذا وقعت؟!

في بدر ألقى الله النعاس على المؤمنين، فها هو يقول: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾**.[٢] وهذه الآية تروي لنا حكاية حقيقةٍ كانت قد واجهت المسلمين قبل بدء الحرب، فقد استولى على المسلمين في حرب بدر قبل نشوب ذعر ووحشة، واضطربوا اضطراباً زائداً، ومن أجل هذا ألقى عليهم

---

١. آل عمران (٣): ١٥٤.

٢. الأنفال (٨): ١١.

النعاس ليأمنوا ويحول بينهم وبين الهرب المحتمل، وأشار إلى هذا الموضوع في الآية التالية، فقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[1].

وبناءاً على هذا، فإن عروض النعاس لهم كان من أجل هدوئهم واستقرارهم وارتياحهم من الوحشة والاضطراب، وقد عرض لهم قبل نشوب القتال.

أما كتّاب السيرة فإنّهم حين رووا واقعة بدر ووجدوا أنَّ ذكر الحقيقة يعفي على جملة أغراضهم ويؤدي بمصالحهم، لذلك تجاوزوا هذا الموضع بسهولة، ولم يعبأوا به، وسلكوا نفس الطريقة في حرب أُحد، فوضعوا روايات لا أساس لها من الصحّة، واستثمروا الآية بالباطل لصالحهم، واستفادوا منها في توجيه مؤامرة المنافقين.

لذلك تصر كتب السيرة أن توحي للقارئ أنّ النوم عرض للمسلمين، وهم في ساعة الحرب، لكي ينفذوا من خلال ذلك إلى إيجاد طريقة بها يوجّهون عمل المنافقين، لأنَّ المنافقين منذ البداية لم ينووا القتال، وكانوا والحرب قائمة لا يقاتلون، ولهذا عمدت كتب السيرة في توجيه هذا العمل إلى الاستفادة من الآية، وقالوا: إنَّ وقوفهم عن الحرب سببه عروض النوم لهم.

ومع عقد موازنة بين الآيتين يتجلى لنا التفاوت في طريقة عرض الله سبحانه لغلبة النوم على المسلمين في بدر وفي أُحد، وإليك إيضاحه:

١ـ احتوت سورة آل عمران عدداً من الآيات ذات الصلة بحديث حرب أُحد، فإن الله تعالى بعد أن قصّ حديث هزيمة المسلمين جعل جزاء هذا العمل لهم غمّين نازلين عليهم.

---

١. الأنفال (٨): ١٢.

وفي سرد الحكاية مع استعمال لفظ «ثم» يقول: إنما أنزل النعاس عليهم ليأمنوا، ولفظ «ثم» يستعمل لوقوع عملين متتابعين، ويفصل بينهما بـ: «ثم» إذا وردا على التراخي، وبهذا ندرك أنَّ إستيلاء النوم عليهم كان بعد ختام الحرب، وتحديد زمن استيلاء النوم هو عند ما صعدوا على الجبل وساورهم حزنان شديدان، لأنَّ هيمنة المنافقين عليهم بدّلت نصرهم إلى هزيمة، وكلفتهم مع ضياع الغنائم فقد كثير من الأهل والأصحاب.

٢ـ في حرب أُحد قدّم الله «الأمنة» على «النعاس»، وهذا الموضوع يحكي لنا عن تأكيد الله للأمنة بواسطة النعاس، وسوف يأتي سبب ذلك.

٣ ـ استولى النوم في حرب بدر عليهم جميعاً، فصار سبباً لأمان المسلمين. والآن ينبغي أن نعثر على جواب لهذا السؤال، وهو: كيف صار النوم موجباً لأمان المسلمين؟

وبعبارة أخرى: ما هو وجه الصلة بين استيلاء النوم وإيجاد الأمن بعد الحرب، وما هي الرابطة بينهما؟!

وينبغي أن يقال في تحليل هذا الموضوع: إنّ الله تعالى يقول: ﴿... **نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ** ...﴾ فصرح بأنّ المحاربين أو الباقين على قيد الحياة منهم انقسموا إلى قسمين: قسم ملحق بالمؤمنين وضمير «كم» يدل عليهم، وقسم آخر من المنافقين.

وهذا يستفاد من الآية حيث يقول سبحانه: ﴿**وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ**﴾.

ويتّضح من هذه الأوصاف أنّ القصد من الفريق الثاني هم المنافقون، ومع وضع هذا الفرض في مقدّمة الحديث يمكن وصف الحادث على النحو التالي: بعد ارتفاع

المسلمين إلى أعلى الجبل استولى عليهم حزنان، واستشعر المؤمنون أنفسهم في مثل هذه الظروف، وعرفوا مدى التقصير الّذي ارتكبوه. ولما علموا أنّ سبب هذه الهزيمة هم المنافقون أنفسهم، لذلك نشأ بينهم نزاع حاد وغضبوا من أجل ذلك غضباً شديداً، ومن ثمّ أنزل الله عليهم النعاس يغشاهم لتفادي الحرب الداخلية الّتي قد تثور بينهم لينجو المؤمنون منها، ويدل استيلاء النوم على جماعة المؤمنين على أنّهم كانوا في معرض القتل بإزاء المنافقين. ولو قدّر للحرب أن تقع لتمَّ القضاء على من تبقى من المؤمنين.

وبما أنَّ الله تعالى يحب المؤمنين ويرعاهم؛ لذلك حماهم بهذا النوم الّذي ساورهم وغشّاهم، وطوّح بهؤلاء المؤمنين ضعيفي الإيمان الذين ارتكبوا العصيان ولم يطيعوا أوامر النّبيﷺ، فكان لطفاً من الله بهم حيث أنقذهم من القتل المحقق.

وببذل تفكير معمق نعلم بأنَّ الخطر كان أبعد من القتل، لأنَّ المنافقين لا يقنعون بتصفية المؤمنين، بل لو وافقتهم الظروف وسارت الرياح على هواهم وانتصروا بقتل المسلمين لمالوا على المدينة فانتهبوها وفتكوا بأهلها إنتقاماً لما حدث بواقعة بدر.

وقد أشار الله في تكملة الآية إلى هذا الموضوع، فقال: ﴿**وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ**﴾ وهم الأكثرية من المنافقين، فلم يكونوا يتمتعون بالروح الجماعية، بل لا تهمّهم إلا أنفسهم، لأنّهم لم يذعنوا أنّهم بهذه الخيانة سوف يضعون مدينتهم أمام خطر جاد وماحق، حيث يبدو ضعفها أمام العدو المغير.

حتى في الصورة الأخرى الّتي يقولها المنافقون: إنهم قادمون لدفع شرّ النّبيﷺ، كان من الممكن أن يعمد أهل مكة لعلمهم بالتنازع الداخلي بين أهل المدينة في كل لحظة إلى الهجوم عليها والغارة على محاصيلها الزراعية ودواجنها.

وبناءاً على هذا كان يلزمهم من أجل هذه الأخطار المحدقة بهم أن لا يشتركوا في هذه المؤامرة لئلا يتسببوا في وقوع هذه الكارثة المحتملة، ولذلك يقول الله سبحانه ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أي: المنافقين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فليس لهم تلك الروح الجماعية، ولم يلقوا بالاً إلى الخطر الماحق المحيط بهم، ليس هذا فحسب بل اعترضوا على النّبيﷺ وساء ظنهم بوعد الله لهم ظن الجاهلية الأولى.[١]

---

١. لتوضيح المعنى علينا أولاً أن نعرف مفهوم الظنّ الجاهلي ما هو؟ ليتميّز بتحديد معناه، ولبيان هذه النكتة نقول: ينبغي بأن يقال ليس ظنّ الجاهلية قائماً على نفي الله، بل أنّ عقيدة القوم في الله قائمة على هذا الأساس، وهي: أنّ آلهة كثيرة في هذا الوجود، وكل إله يؤدي عملاً من أعمال الله، ولو أُلقيت جميع الأعمال كلّها على عاتق الله لما خرج من عهدتها، وهذه الآلهة تقف في وجه الخراب الّذي قد ينشأ عن الله تعالى، ولذلك تجد لكلّ قبيله إلهاً يحول بين الله وبين الدمار الّذي يسببه للقبيلة ويحفظها منه، لذلك انطلقت ألسن المنافقين بالاعتراض استمداداً من هذا الظنّ العالق بأنفسهم منذ عهد الجاهلية.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهل نملك خياراً في وقعة أُحد أو علينا انتظار الأوامر الموجهة من الله؟ لذا يقول الله تعالى آمراً نبيّه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لله﴾ أي: قل لهم الأمور كلها بيد الله، ثم يواصل ﴿يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: أنّ هؤلاء المنافقين لا يؤمنون بوجود الله ولا بنبوّتك في قرارة أنفسهم، ولكنّهم لمّا عجزوا عن إبراز ذلك للملأ ، من أجل النفاق الّذي ساور أنفسهم، فإنّهم يقولون بدلاً من ذلك: ﴿لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا﴾.

التفتوا جيداً لهذا السياق، فإنَّ فيه نكتة ظريفة تظهر خيانة المنافقين، لأنّهم بذكاء خبيث يرون قتل المؤمنين قتلاً لأنفسهم، وإن كان هؤلاء المنافقون شاركوا في المؤامرة لاستئصال المؤمنين ﴿لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى‏ مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في‏ صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما في‏ قُلُوبِكُمْ وَ اللهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذه الآية أنزلها الله تعالى ردّاً على ما يدّعون.

فإنَّ موت أحد أو حياته ليس بيد أحد، وتقدير الأمور بيد الله، وكانت المصلحة الّتي يعلمها الله على هذا النحو: أنَّ المؤمنين يقتلون هنا، وأنتم لستم من الأمر في شيء لتضربوا صدوركم من أجلهم، وتأسون لهم، ولو أنَّ الله تعالى قدّر قتل إنسان فإنّه يبرز إلى مضجعه. وهذا الأمر تبتلون به ليظهر ما في قلوبكم، هل تؤمنون بالله ورسوله؛ أو أنّكم تضمرون في أنفسكم خلاف ذلك من الحقد على النّبيﷺ؟ من أجل هذا ميّز الله الحق من الباطل في قلوبكم والله يعلم ما في قلوبكم.

الفصل الثالث

رواية حوادث ما بعد الحرب

وتسلية المؤمنين

القسم الأول: خمود نار الحرب

وعد الله المسلمين في حرب أُحد بقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[1] وهو يعني أنَّ وعد الله تعالى بأن يقطع طرفاً من المشركين مشروط بتحرك المسلمين، بل المؤمنين، لأنَّ نصرة الله تتحقق لهم عند ما يخطون خطوة إلى الأمام، وإلا فإنَّ الله لا ينصرهم عن طريق الإعجاز. لذلك كان الوعد الّذي قطعه الله على نفسه للنَّبيﷺ متحققاً عند ما كان المؤمنون يقاتلون في ميدان القتال[2]، ولكنّ المؤمنين عند ما تقهقروا وولّوا الأدبار وأخلفوا وعدهم، فإن الله سبحانه عاد إلى الهدف الثاني فصيّره فاعلاً في الحرب وهو: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[3] وتمَّ الأمر على صعيد عملي على هذا النحو، يعني لم يشارك المؤمنون في الحرب، فلم يتحقق الهدف الأول.

وعندئذ ينبغي أن يكون الهدف الثاني واقعاً، وهو دحر المشركين وعودتهم خائبين، وانتصر المشركون في أُحد وقتلوا عدداً من المسلمين ثأراً لأصحاب بدر، وعادوا يرددون شعار النصر، وهو: «أُعل هبل» وتوعدوا المسلمين بالعودة إليهم في العام القابل.

---

١. آل عمران (٣): ١٢٧.

٢. أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة في الآية ١٥٢، وسوف نتعرض له في مستقبل البحث إن شاء الله تعالى.

٣ .آل عمران (٣): ١٢٧.

إذن، ماذا كانت خيبتهم، وقد أحرزوا كلَّ هذا؟ وبعبارة أخرى: ما هو هدف المشركين الّذي لم ينالوه وعادوا من أُحد خائبين؟!

بالنظر إلى ما تقدم قوله لحدّ الآن، لم يكن هدف المشركين توجيه ضربة قاصمة إلى المسلمين فحسب، وإنّما هدفهم الأكبر هو القضاء على الإسلام مع تصفية النَّبيﷺ، واتفقوا مع المنافقين على ترك الساحة وإفراد النَّبيﷺ بها وتركه وحيداً في أتون الحرب المشتعل.

وعندئذ، يبقى الخيار للنَّبيﷺ بين الفرار في القيافي ومن المعركة، أو استسلامه للمشركين أو قتله بأيديهم. وعندئذ يستطيعون استئصال الإسلام من جِذمه[١]، فيرفع الخطر المتسبب عن الإسلام عنهم حتى لا يهددهم. ولكن الله حفظ نبيّه على عكس ما أراده المشركون والمنافقون، ولم يصلوا إلى أهدافهم؛ لأنّ للنَّبيﷺ محامياً كعلي بن أبي طالبعليه السلام وكانت نجدته وتضحيته ونكران ذاته في سبيل الله سبباً في ردع المشركين وردّهم بغيظهم خائبين.

وحدث من المشركين هجوم كاسح على النَّبيﷺ من كلّ جانب، فحمل عليهم أميرالمؤمنين وأوردهم النار، وقاتل مع النَّبيﷺ قتالاً مستميتاً شجاعاً تمكن به من قتل المشركين كلهم حتى آيسوا ـ مع وجود أميرالمؤمنينعليه السلام ـ من وصولهم إلى ساحة قدس النَّبيﷺ، وحقق الله وعده لنبيّه على هذا النحو، فأذلَّ المشركين وأعوانهم المنافقين.

وهذه هي «الخيبة» الّتي أصابت الكفار وذكرها الله تعالى في هذه الآية.

وفي هذه الساعة لمّا آيس المشركون من الوصول إلى رسول اللهﷺ غادروا المعركة

---

١. الجذم بكسر المعجمة الأصل، يقال: جذم القوم: أصلهم. (الفراهيدي، العين: ٦/ ٩٧).

رافعين شعار النصر لحفظ ماء وجوههم، وتركوا القتال وأعطوا ظهورهم للمسلمين، وكانت خاتمة حرب أُحد على هذا النحو.

مجيء صفية إلى ساحة المعركة:

لما بلغت أنباء الهزيمة المدينة هرع عدد من نسائها تلقاء أرض المعركة، وكانت صفيّة عمّة النَّبيﷺ من بينهنّ، وهي أخت سيدنا حمزة، وما إن رأى النَّبيﷺ صفيّة مقبلة حتى أمر بوضع ردائه على حمزة الممثل به، ولما قصرت العباءة عن قامته وضعوا على رجليه شيئاً من الحشائش، ولكن صفية أصرّت أن تراه، فعهد النَّبيﷺ إلى ولدها الزبير بإبعادها عن جسد أخيها، عند ذلك قالت لولدها: بلغني أنّهم مثّلوا بأخي، وإنّي أقسم بالله أن لا أجزع حين أراه وأحتسبه عند الله، فوقفت تلك المخدرة الرفيعة على جسد أخيها، وصلّت عليه، وسألت الله له المغفرة، وعادت من حيث أتت.[١]

علاج جراحات النَّبي ﷺ:

ومن اللواتي حضرن واقعة أُحد: الصدّيقة الطاهرة، والأحاديث الدالة على حضورها ومداوتها النَّبيﷺ في صحاح السنة كثيرة، منها صحيح البخاري بإخراجه عن سهل بن سعد أنّه قال:

«ما بقي أحد أعلم به مني، كان علي يجيئ بترسه فيه ماء، وفاطمة تغسل عن وجهه الدم، فأُخذ حصير فأُحرق فحُشي به جرحه»[٢]

---

١. انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

٢. البخاري، **الصحيح**: ١/ ٥٨؛ وراجع: نفس المصدر: ٤/ ٣٨ و ٦٥؛ ٥/ ١٠١؛ ٧/ ٤٠ و ١٢٩. وبهذا المضمون عن سهل بن سعد، انظر: الترمذي، السنن: ٣/ ٤٨١؛ الطبراني، **المعجم الكبير**: ٦/ ١٤٤، ١٥٣، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٧ و ١٩٧؛ مسلم، **الصحيح**: ٥/ ١٧٨.

ومع وجود الوفرة في الأحاديث الصحيحة المروية وكلها مطبقة على أنَّ الصديقة الطاهرة وأمير المؤمنين هما اللذان أخذا على نفسيهما مداواة النَّبيﷺ، ولكننا نعثر في كتب التاريخ الأخرى على اسماء أعيان هويتهم معلومة للتاريخ.

من هؤلاء «سالم مولى حذيفة» وهو من خواص عمر وأبي بكر، وكان في حادثة السقيفة يدعو إلى أبي بكر ويجمع له المبايعين. وقد قال عمر عند موته: «لو كان سالم حياً لعهدت إليه بالخلافة ولم ألتزم الشورى».[١] من ثم لجأوا إلى نحت مناقب لسالم، وأية فضيلة أعظم وأجل من غسل دم النَّبيﷺ في واقعة أُحد؟ لذلك قالوا عند ما أصيب النَّبيﷺ بجراحات في وجهه وسقطت رباعيته وأُصيبت أسنانه: كان سالم مولى حذيفة يغسل دم رسول اللهﷺ.[٢]

سبب احجام عائشة عن المجيء إلى ساحة أحد:

كثر الحديث عن عائشة[٣] أوّل امرأة تزوجها النَّبيﷺ بعد خديجةﷺ في حرب بدر، في

---

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٠.

٢. الطبري، جامع البيان: ٧/ ١٩٧.

٣. ومن هذه الأحاديث: حديث الإكسال، وهو أن يجامع الرجل ولا يستطيع أنزال المني، كما في معجم لغة الفقهاء: ١/ ٣٨١، وهو حديث رواه مسلم والبخاري: أنَّ رجلاً سأل عمر: إني جامعت زوجتي ولم أنزل، هل أغتسل؟ فقال له عمر: سل البدريين، وكان أمير المؤمنين ساعتها حاضراً ومعه عمار فقالا: عليه الغسل، لأنّنا سمعنا رسول الله يقول: «إذا التقى الختانان وجب الغسل»، وأمّا عثمان وعبدالرحمن بن عوف قالا: إنّا سمعنا النَّبي يقول: «إنما الغسل من الماء»، فأمر أمير المؤمنين بسؤال زوجات النَّبيﷺ ولما سألوهنّ قلن بأجمعهنّ: هذه الحالة لا تعتري النَّبي، ولقد كان كامل الصفات، إلا عائشة فإنها قالت: ما أكثر ما يعتري النَّبي الإكسال وهو معي، فيغتسل ويأمرني بالاغتسال.

وتعليقاً على ذلك نقول: أولاً: يظهر أنها لم يفهما كلام النَّبيﷺ «إنما الغسل من الماء» حين استشهدا به، لأنّه مرتبط بالاحتلام وليس بالجماع، أي: أنَّ المرء إذا ما رأى في النوم حلماً فأنزل وجب عليه الغسل، وإن

سنّ السابعة من عمرها.

وما إن وصل خبر هزيمة المسلمين إلى المدينة حتى هرع جماعة من نسائها جهة المعركة في أُحد، ومن النافرات نحو أُحد: صفيّة عمة النَّبيﷺ، وقد أمر النَّبيﷺ بستر جسد حمزة الّذي مثّلوا به عنها.

وممن قدم إلى أُحد من النساء: الصديقة الطاهرةعليها السلام، وقد أعانت بعلها علياًعليه السلام على غسل دماء رسول اللهﷺ، إلا أنّ ذكراً لعائشة لم يجرِ على لسان أحدٍ ممن حضر، وهي حرم النَّبيﷺ، وكان الأجدر بها بما هي الزوجة أن تتولى مواساة النَّبيﷺ ومداواته، وهي أولى بذلك من البنت.

وينبغي التماس وجه لغيابها، وأحسب أنَّ لفرار أبيها دخلاً في موضوع غيابها عن الساحة، فلو كانت عائشة قلقة على أحد لحضرت الساحة في أُحد حتماً، ولا يمكن أن يغفل الرواة ذكرها وذكر الخلفاء الثلاثة لو كانوا حاضرين.

وتؤول النتيجة من فحص مقدماتها، بأنّ عائشة فارغة البال من الخوف والتوتر على أبيها وصاحبه.

وكانت عالمة بوجودهم في مكان آمن لا تطاله الحوادث، فلم يحفزها سبب لحضور «أُحد»، وليس معنى هذا أنّها لا تهتم بما نزل بساحة النَّبيﷺ من العدوّ، بل صانت نفسها عن الظهور في الجمع إلّا في حرب الجمل، حيث اقتضتها الضرورات أن تفعل ذلك.

لم ينزل فلا. وثانياً: يظهر من الحديث أنّ النَّبيﷺ لا رغبة له في عائشة، وكان يجمعه وإياها سرير واحد من أجل إعفائه من التكليف.

دفن الشهداء:

وصلّى النَّبيﷺ على شهداء أُحد، ثم دفن الواحد والاثنين والثلاثة في قبر واحد في الموضع الّذي استشهدوا فيه، أي: في وسط الساحة الحربية الّتي فازوا بالشهادة بها، وتدعى اليوم بمقبر أحد الشهيرة.

القسم الثاني: الرجوع إلى المدينة

مواساة المؤمنين:

بعد عودة النَّبيﷺ إلى المدينة أخذ في مواساة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وفي لغة العرب لفظان: هما «الحزن» و«الخوف»، وهما تعبيران يختلف مؤداهما، إذ «الحزن» خلافه «السرور»، وهو متصل بالحوادث السابقة، وأمّا الخوف فخلافه «الأمل»، وهو معنى يتصل بالأيام المقبلة والحوادث المستقبلة. ومدلول لفظ «تهنوا» الوارد في الآية أبلغ من مدلول «تخافوا»، وهي تعرب عن الخوف الممزوج بالوهن.[2]

وبناءاً على هذا يخاطب الله تعالى المؤمنين بالآية، فيقول لهم: إيّاكم والوهن فيما يقابلكم من المسؤوليات المقبلة، ولا تحزنوا على ما فاتكم؛ لأنّكم الأعلون، شريطة أن تظلوا مؤمنين، أي: أنَّ المسلمين استشعروا بالغرم الفادح الّذي تحملوه بعد وقعة أُحد، وخافوا من المشركين حتى خشي عليهم الوهن والتلف من ذلك، وأن يقصّروا في أداء مهامهم المستقبليّة، من الصمود في قبال المشركين في الحروب المستجدة.

---

١. آل عمران (٣): ١٣٩.

٢. أحياناً يخاف الإنسان فيخفي نفسه أو يخرج من بلده، وأحياناً يضطر لمواجهة خصمه.

ومن جهة أخرى استولى على المسلمين غمّ شديد لفراق الأحبة الذين استشهدوا، ولضياع المغنم من أيديهم، ولذلك أنزل الله عليهم السلو والإطمئنان وأمرهم ألا يهنوا في المستقبل، وأن لا يغتموا لفراق الأحبة وضياع المغانم، لأنّهم الأعلون، ولكن ذلك مشروط بالحفاظ على مستوى الإيمان في قلوبكم، لأنكم أصبتم بهذه الهزة في أُحد لتزلزل إيمانكم، والآن حافظوا على إيمانكم لتنالوا بغيتكم من العدو، وتكونوا أنتم الأعلون. والنكتة الدقيقة الّتي تستفاد من هذه الآية هي أنّ الخطاب الموجه للمؤمنين من ربّهم كان بصيغة النهي، وترك النواهي الربانية واجب، وإنكاره ردّ على الله ويؤدي إلى سلب الإيمان من صاحبه.

أي: أنّ شرط علوّ المؤمنين هو ثباتهم على مبدأ الإيمان، وشرط الإيمان هو التسليم المطلق في قبال أوامر الله ونواهيه.

ويكشف عن هذه الحقيقة بالبيان التالي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١] وفي مقابل ذلك يكون الكفر هو العناد والتمرد على أوامر الله ونواهيه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾.[٢]

وبناءاً على هذا يكون التسليم ـ في قبال الأوامر والنواهي الإلهية ـ هو شرط الإيمان، ومخالفة تلكم الأوامر والنواهي موجبة للكفر، شريطة أن تكون المخالفة عن

---

١. النور (٢٤): ٥١.

٢. النساء (٤): ١١٥.

عمد وعلم وعلى أساس الإنكار.

من ثمّ كان الّذي يؤسر لشهوات النفس، وتراه مخالفاً لأوامر الله ونواهيه لايعتبر كافراً ما لم تصل المخالفة إلى حدّ الإنكار، وأن الإصرار على الذنب ربما أفضى به إلى الكفر، وفي هذه الآية مضافاً إلى ما اتخذه الله مع المؤمنين من مواساتهم ومداراتهم، ونهيه لهم عن الضعف والغم، أنه وضع إلى جانب بقائهم «الأعلون» شرطاً مهماً في المستقبل، وهو بقاؤهم على قيد التسليم في قبال الأوامر والنواهي الإلهية، وهذا هو شرط الإيمان أيضاً، وفي دوام رعاية الله للمؤمنين من حيث تربيتهم على مواجهة الصدمات بواقعية يقول تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[١] ويقول الله بعد نهيه المؤمنين من الوهن: إذا تسبب وهنكم وحزنكم بهزيمتكم في حرب أُحد وجرَّ إلى فقدكم الإخوان والأخلاء وضياع غنائمكم من أيديكم، فإنَّ عدوكم أيضاً أصابه ما أصابكم ولكنه لم يهن ولم يجزع بل جمع نفسه وعاد لحربكم مرة أخرى، بقوة أشد وحافز أكبر وجهد أكثر مع كونهم مبطلين. أما أنتم فتقاتلون من أجل الحقّ والحقيقة ورسول الله بينكم، وفي ختام الآية يذكرهم بحقيقة واضحة ساطعة، وهي «تداول الأيام»، والله تعالى بهذه الحقيقة يذكرهم سبحانه بسننه في خلقه، أي: أنَّ حوادث الدنيا تجري على أساس السنن الطبيعية وبالعلل والأسباب العادية، وكما وضع الله تعالى للحماية من زمهرير الشتاء أسباباً يجب اتخاذها لنيل الأمان منه، كذلك باقي الأمور، فلا يمكن الوصول إليها إلاّ بطيّ طرقها الطبيعية.

---

١. آل عمران (٣): ١٤٠.

والحقيقة نفسها تنطبق على الحرب، فليس للمسلمين أن يُعفوا أنفسهم من واجبات القتال ومهمّاته، ثم يأتيهم النصر سعياً على الرأس، بل عليهم الجدّ في العمل وتحمّل المصاعب والمتاعب في سبيل الله والجراحات كذلك لكي يؤاتيهم نصر الله، وعلة هذه السنة الإلهية هي تداول الأيام بأسبابها العادية، وهي امتحان للأشخاص، يتميز بها المؤمن من غير المؤمن، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وبهذا تكمل حجة الله على الخلق، وكذلك يختار الله من بين هؤلاء المخلوقين المؤمنين ويجعلهم شهوداً على الكافرين، ليسدَّ باب الذرائع على الكافرين.

أجل من حضور فئة مثل حمزة سيد الشهداءﷺ، والإمام أميرالمؤمنينﷺ وجماعة معدودة من هذا الطراز، الذين صمدوا في الميدان، وقاوموا إلى حدّ فناء الأرواح وإزهاقها، وحاموا دون رسول الله ودين الله، لا يبقى عذر وحجة لأولئك القوم الذين أخلوا ساحة الحرب وفروا، وتركوا النَّبيﷺ في عمق المعترك وحده.

فهؤلاء يشهدون عند الله غداً على ضعف الإيمان في نفوس المنهزمين ويحاكمهم الله تعالى طبقاً لهذه الشهادات.

وفي ختام الآية بعد إسداء النصيحة للمؤمنين وبيان سنن الله في الكون يقول سبحانه: ﴿والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وتعني هذه الآية مع وصلها بسياق الآيات السابقة: أنَّ أشخاصاً في حرب أُحد تركوا النَّبيﷺ وحده وفرّوا، ثم أصابهم الوهن بعد ذلك على أثر الضربة القاسية الّتي وجّهت إليهم من قبل المشركين، فيقول الله تعالى: إن كنتم ـ على أثر الهزيمة في الحرب وتحمل الأسى والمصائب وفراق الأحبة وفوت الغنائم ـ داخلكم الوهن فأنتم

الظالمون، والله لا يحب الظالمين. ثم يواصل سبحانه في استدامة نتيجة امتحانه بناءاً على سنة تداول الأيام، فيقول: ﴿وَلِيمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[١] كي يطهّر الله المؤمنين بعد هذا الامتحان من كلّ عيب ونقص، ويمحق الكافرين لظلمهم.

وبناءاً على هذا تكون النتيجة في هذا الامتحان هي تطهير المؤمنين ومحق الكافرين، ليتضح للجميع ثواب الله وعقابه، كما أشار في الآية التالية إلى ذلك، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]. ويمكن استلهام الآية بنظرة سطحية على النحو التالي: أنّ الله تعالى أخذ ببيان درجات المؤمنين في الجنة، أي: أنَّ الذين فازوا بالامتحان هم أولئك الذين جاهدوا في سبيل الله وصبروا على المصاعب والمصائب، فإنهم يدخلون الجنّة، كما أنَّ عدداً ممن ينتمون إليهم من أهل النار. وأما العامة من المسلمين فإنّهم يشكّلون فئة النظارة أو أنّهم من أهل الجنة ذوي الرتب الدانية.

ولكن دقة التأمل تكشف لك أن لا مجال لبحث الرتب والدرجات في هذه الآية، بل الأمر ينحصر في دخول الجنة أو الحرمان منها.

أي: أنّ التقسيم العام يقتضي بأن من لا يدخل الجنة صائر إلى جهنم حتماً، والله تعالى يخاطب المسلمين: أترون أنكم تدخلون الجنة بدون استحقاق؟ أي: أنّكم إذا ما أثبتم جدارتكم في الجهاد في سبيل الله وصبرتم على عنف المصائب والصعاب فإنَّ مكانكم سوف يكون الجنة.

---

١. آل عمران (٣): ١٤١.

٢. آل عمران (٣): ١٤٢.

وافترض بأنَّ الآية جاءت على النحو التالي: «أم حسبتم أن تنالوا درجة الشهداء» ففي هذه الصورة يكون البحث عن الرتب في الجنّة ولكن القرآن الكريم بعد معركة أُحد يوضح للمسلمين تكاليفهم، بالمعنى التالي: أي: أنّكم إذا جاهدتم في سبيل الله وصبرتم على الشدائد والصعاب فإنّكم سوف تصيرون إلى الجنة، وإن فررتم من الجهاد كان عذاب جهنم بانتظاركم.

كلمة«الأمر» في الآية ١٢٨ من سورة آل عمران، دعاء أم براءة؟

كما مرَّ آنفاً أنَّ المنافقين والمشركين اتفقوا وتآمروا على تصفية النَّبيﷺ ولكن الله سبحانه دكّهم، بحيث رجعوا آيسين ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ**﴾[١] وبعد هذه الخيبة الّتي أصابتهم واليأس الّذي ركبهم فليس من البعيد أن يطلب لهم النَّبيﷺ المغفرة، وهو نبيّ الرحمة الواسعة ومظهرها، وهم وإن كانوا كافرين منافقين ولكنّهم أحاطوا به ودنوا منه وتفيأوا ظلاله.

ولذا ذكر بعد لفظي «الكبت والخيبة» اللذين أصابا الكافرين من أجل صرف النَّبيﷺ عن الدعاء لهم وجّه الخطاب إلى النَّبيﷺ فقال:

﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾.[٢]

ومن المعلوم أن نصيب هؤلاء العذاب لظلمهم، ولكن الله سلمهم لوجود المصلحة المقتضية لذلك، والحكمة الربانية، وبهذه الآية يُحكِم الباري سبحانه إغلاق

---

١. آل عمران (٣): ١٢٧.

٢. آل عمران (٣): ١٢٨.

الطريق على جماعة من المؤمينن الذين يحتمل في حقهم أن يطلبوا من النَّبيﷺ الاستغفار لبعض قومهم الذين هلكوا على الشرك، فيقول: لا اختيار للنَّبي في هذا الأمر ومصير المنافقين والكافرين بيدي.

والمقصود من «الأمر» هنا: قضية خاصة؛ لمجيء اللفظ محلىً بأداة التعريف، ويدلّ على أنّ الله تعالى يشير إلى واقعة معيّنة، وبناءاً على سياق الآيات تعود ضمائرُ «عليهم» في ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ و«هم» في ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بـ «اللذين كفروا» الواردة في الآية السالفة[١].

وبعبارة أخرى: إنَّ الغرض من مجيء لفظ «الأمر» هنا هو القضاء بحق الكافرين، لأنّ الله تعالى يقول لنبيّهﷺ أنك لا اختيار لك في مسألة الكافرين، وإنّما اختيارهم بيدي، إمّا أعذبهم أو أتوب عليهم، ولكنّهم يستحقون العذاب لأنهم كافرون، ويعبر الله تعالى بالآية التالية عن الاستمرار فيقول:

﴿وَلله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[٢]

فإنَّ لهذه الآية صلة تامة بما قبلها، وتؤلف نوعاً من الاستدراك على ما قبلها، وتؤكد مرة أخرى الحقيقة المتضمنة لحصول الاختيار في أمر المنافقين بيد الله تعالى، إن شاء عذّب وإن شاء عفى.

وربما نبع في الذهن سؤال هنا، وهو: لعلَّ النَّبيﷺ هنا في موضع البراءة من

---

١. ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ﴾ (آل عمران (٣): ١٢٧).
٢. آل عمران (٣): ١٢٩.

الكافرين، وينهاه الله عن ذلك، ويقول له: لا تتبرأ منهم، إذ لعلَّ التوبة تدركهم فيتخلصون مما هم فيه.

وفي الجواب ينبغي أن يقال: إنَّ الله تعالى ليس بصدد بيان توبتهم في هذه الآية، بل بصدد بيان أنَّ أمرهم في الحال الّتي هم عليها بيد الله تعالى، فهو بالخيار من أمرهم بين أن يتوب عليهم أو يعذبهم، كما يقول في موضع آخر: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[١].

ويقول في موضع آخر: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾[٢] بناءاً على الحكمة والمصلحة.

وبناءاً على هذا لم يرد هنا بحث التوبة، بل هم على الحال الّتي هم عليها يكون الله تعالى بالخيار أن يمهلهم أو يعذّبهم.

وجاء هذا البيان من الله لكثرة وجود المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، بل كان المسلمون أغلبهم منافقين، وقد أوضح الله هذا الأمر بالتصريح التالي: ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾[٣].

يعني ـ والله أعلم ـ أنّ المؤمنين اُمتحنوا في وقعة الأحزاب امتحاناً شديداً، وتعرض الجميع لزلزال الإيمان، ومن الطبيعي أنَّ للنفاق مراتب متفاوتة، فجماعة من المنافقين هم الخاصون الذين عزلوا في الأحكام والتكاليف، ولكنهم ينفصلون عن إيمانهم

---

١. التوبة (٩): ٢٧.

٢. الأحزاب (٣٣): ٢٤.

٣. الأحزاب (٣٣): ١١.

بالسرعة القصوى، لمجرد التعرض لامتحان بسيط، ومن أجل ذلك هم يستحقون العذاب.

وعلى إثر ذلك يقول الله تعالى: «وإن شئت عذبتهم أو إن شئت أتوب عليهم»، ولكن في مقام التوبة من الوضوح بمكان أن الله يتوب عليهم، وعندئذٍ لاموضع للعذاب، ولا ينسجم مع مقام النبوة البرائة من قوم تُقبل توبتهم وهم معرّضون لها.

وبناءاً على إشعار هذه الآية بسبب نزولها، وهو منع النَّبيﷺ من الاستغفار للمنافقين، وليس لها ارتباط في منع البراءة منهم، من جهةٍ أخرى يبيّن الله تعالى أنَّ سبب ذلك هو ظلمهم، فيأتي الخطاب منه تعالى: «أنّهم يستحقون العذاب ولكن اختيارهم بيدي، وإن شئت عفوت عنهم أو لا فأعذّبهم، وأنت أيها النَّبيّ لا خيار بيدك فيما يرتبط بمصيرهم».

تفسير أهل السنة للآية ١٢٨ من سورة آل عمران:

يقول السهيلي ـ وهو واحد من محدّثي أهل السنة ومحققيهم الكبار ـ في كتاب «الروض الأنف» وهو شرح على سيرة ابن اسحاق ـ ابن هشام ـ في تفسير الآية: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...﴾** بعد أن يعزو روايات للنَّبيﷺ ... يقول على أثرها:

> «وفي تفسير الترمذي حديث مرفوع أنَّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم كان يدعو على أبي سفيان والحارث بن هشام وعمرو بن العاص حتى أنزل الله تعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ**

عَلَيْهِمْ﴾[١] قال: فتابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وهذا حديث ثابت في حسن إسلام أبي سفيان[٢] خلافاً لمن زعم غير ذلك، وأمّا الحارث بن هاشم فلا خلاف في حسن إسلامه وفي موته شهيداً بالشام، وأمّا عمرو بن العاص فقد قال فيه النَّبيﷺ أسلم الناس وآمن عمرو ...»[٣].

وواضح جداً ويؤكده البرهان أنَّ حديثاً كهذا ما هو إلّا تحريف لآيات القرآن الكريم ولعب بمعناها، وتظهر مغالطة السهيلي بوضوح، لأنّه لم يشر إشارة واحدة إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٤] وبناءاً على هذا فإنَّ سلب الاختيار عن النَّبيﷺ بالنسبة لهؤلاء القوم هو ظلمهم وتعديهم، وبهذا يضع الله الأسباب بين يدي

---

١. آل عمران (٣): ١٢٨.

٢. لاحظ: تفسير أهل السنة للآية ١٢٨ سورة آل عمران، ويعتقد بعض أهل السنة وجميع المعتزلة أنّ إسلام أبي سفيان نفاق .... .

٣. السهيلي، **الروض الأنف**: ٦/ ٣٩ ـ ٤١.

٤. آل عمران (٣): ١٢٨ ، وهذا نموذج من مغالطات العلماء من غير الإمامية في آيات القرآن الكريم، ويوجد كثير مثلها بين أقوالهم وآثارهم، ونسوق هذا المثال عنواناً لما نقول: الآية ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص (٢٨): ٥٦) يقولون عنها: كان النَّبيﷺ مصراً على إسلام عمّه أبي طالب، فنزلت هذه الآية تروي هذا الإصرار، وهذه مغالطة ظاهرة ودلالتها على بغض أميرالمؤمنين لا تكاد تخفى، وكذلك بغض والده الّذي بذل النفس والنفيس في حماية النَّبيﷺ وحفظه. يقول ابن أبي الحديد: فدى أبوطالب وأولاده الإسلام بالنفس وبالمهجة، وحموا النَّبي ودينه، ولما كان النَّبي في مكة كان في حماية عمّه أبي طالب وكفالته، وأمّا في المدينة فقد كان أميرالمؤمنين مدافعاً له كلّما توجه إليه خطر، وكان النَّبي مصراً على إسلام هؤلاء في مكة عند ما كانوا يشكلون خطراً على حياته، ويضعون المؤامرات لقتله، وكانوا في المدينة أساس كلّ فتنة وتخريب، ومن ثم اشتبهت الحال على عوام أهل السنة على أثر هذا الخبط المتعمد في التفسير، ومن هنا قلنا وكررنا القول أنَّ النجاة منحصرة في طريق واحد، وهو فهم معاني الآيات الإلهية، واستنباط المسائل من القرآن المجيد، فهي الّتي تفتح الطريق أمام بغاة الحقّ وطلابه، وتسده في وجه مغالطة المغرضين.

نبيّه ﷺ. وبناءاً على هذه فإنَّ نزول الآيات ما هو إلّا لمنع طلب الغفران للمنافقين من النَّبي، وليس لمنعه من البراءة منهم، لأنَّ كلّ ما يفهم من الآية هو أنّه لو كان الأمر إليك لسألت لهم المغفرة، وعند ذلك نرحمهم نزولاً عند رغبتك واستجابة لطلبك، والشاهد على ذلك هذا الجزء من الآية: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1] ومن هذه الجملة يستفاد أمران:

أولاً: لو أنّ النَّبي ﷺ طلب لهم العذاب لما كانت حاجة من سوق الدليل، بقوله: (أنّهم ظالمون)، وبناءاً على هذا التعليل بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ حيث يحكي عن حقيقة ما لو كان الأمر بيد النَّبي ﷺ فإنّه بسعة كرمه ولكونه رحمة للعالمين فإنه يطلب الرحمة لهم والعفو عنهم.

وثانياً: أنَّ الجملة: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ اسمية، وتدلّ على استمرار الصيغة، فلو أنَّ الأمر ـ كما زعمه السهيلي ـ أنها نزلت للحيلولة دون براءة النَّبي ﷺ منهم، لنزلت تزكيتهم أو على أقل تقدير بيان غفلتهم، ولكن على العكس من ذلك، فقد أظهر كونهم «ظالمين»، بل جعل صفة ظلمهم إلى البقاء والاستمرار، ولذلك يقول لنبيّه: «إنَّ هؤلاء لظلمهم لا خيار بيدك لهم حتى تطلب لهم الرحمة، لأنّهم يستحقون العذاب المحتم».

ولاحظوا أنّه بأقلّ تأمّل وإمعان نظر في الآية يظهر بوضوح خبث السهيلي وأضرابه لما يكوي أضلاعهم اللعينة من بغض أميرالمؤمنين، فإنّهم حرفوا القرآن ليكونوا

---

١. آل عمران (٣): ١٢٨.

مصداقاً بارزاً لقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعدِ مَّوَاضِعِهِ﴾[١] ومما يؤسف له أنَّ الغالبيّة من الحفّاظ والتالين للقرآن شغلوا بظاهر القرآن أيضاً، وغفلوا عن معانيه، وفي هذا يقول الإمام الباقرؑ في حق هؤلاء الأفراد:

«... رجل قرأ القرآن فحفظ حروفه، وضيّع حدوده ...».[٢]

وهؤلاء هم الذين قرؤا القرآن، وأقاموا حروفه بنطقها على أصولها، وأما حدوده ومعانيه فقد ضيّعوها.

١. المائدة (٥): ٤١.

٢. الكليني، أصول الكافي: ٢/ ٦٢٧؛ عن أبي جعفرؑ قال: قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة، واستدرّ به الملوك، واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده، وأقامه إقامة القدح، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله، وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يديل الله عز وجل من الأعداء، وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعزُّ من الكبريت الأحمر.

الفصل الرّابع

ظهور وجوه النفاق في حرب أُحد

القسم الأوّل: خلفيات وجود النفاق في المدينة

برزت وجوه النفاق ظاهرة في أول يوم من دخول النَّبيﷺ المدينة، وجاء ذكرها في سورة الأنفال الّتي ذكرت موقعة بدر في آياتها، ونزلت في السنة الثانية للهجرة.

وفي السنة الثانية من حدوث الواقعة، خصص الله تعالى آيات من سورة آل عمران بالمنافقين، ومع مرور الزمان يشتد جذر النفاق ويقوى في كلّ عام إلى أن أنزل الله تعالى في سورة المائدة في آخر عمر النَّبيﷺ هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.[1]

ومن شواهد القرآن الدالة على وجود النفاق في المدينة: الآية الشريفة ١٤٩ من آل عمران:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ﴾.

فإنَّ هذه الآية الشريفة نزلت في مجتمع المدينة، ولو أنّها نزلت في مكة لقلنا إنَّ الله

---

١. المائدة (٥): ٤١.

تعالى نهى المؤمنين عن الطاعة لخوفهم من سطوة قريش وتعذيبهم، ولكن مع العلم بأنَّ الآية مدنية، فما معنى طاعة الكافرين؟ اللهمَّ إلّا بأن نقول إنّ في المدينة أجواءاً مسيطرة عليها تنتج النفاق، ليس هذا فحسب، بل المؤمنون أيضاً وقعوا تحت معرض الإغفال من سياسة المنافقين ومؤامراتهم.

وبعد هجرة النَّبيﷺ كان الجوّ الحاكم في المدينة هو الجوّ الإسلامي، فإذا ما رأينا النَّبيﷺ ينهى المجتمع المؤمن عن طاعة الكافرين نعلم أنَّ هؤلاء الكافرين هم الذين ظاهرهم الإسلام ولكن الكفر ملأ بواطنهم.

وهنا يداهمنا سؤال يفرض نفسه: مَن هؤلاء المنافقون الذين ملأ الكفر بواطنهم، ووقعت المدينة تحت تأثير نفوذهم، وخضعت لهم بالطاعة والقبول، بحيث يُحذّر الله تعالى من أنّهم لو بقوا على طاعتهم فسوف يرجعونهم القهقرى ويحملونهم الغرم والتبعات؟

ولّما لم يرَ أهل السنة منافقاً أوطأ كنفاً من عبدالله بن أبي لذلك ألقوا بتبعات المنافقين كلها على عاتقه، ومن أجل أن يوقفوا التحقيق في وجه الأجيال القادمة حصروا النفاق به وبجماعة من حوله من الأنصار، وبهذا يريدون أن يصونوا رداء المهاجرين من النفاق، ويبعدوا وضره عنهم، ولكنهم يقفون عن جواب هذا السؤال مطلقاً، وهو إن كان النفاق يدور على محور عبدالله بن أبي، فلماذا لم ينقطع بموته؟ وصار أحكم من ذي قبل في مجتمع المدينة وفي حياة رسول الله، واستطالت شجرته، وكثرت جذورها

وفروعها؟[١] ولماذا ما زال القرآن يتحدث عن النفاق بعد هلاك عبدالله في سورة المائدة النازلة في أواخر حياة النَّبي ﷺ جملة واحدة؟

كلّ هذا يدل على حقيقة واحدة، وهي أنّ النفاق لم تجتث أصوله في مدى ثلاث وعشرين سنة فحسب، بل أخذ يزداد قوّة في كلّ يوم بالشكل الّذي كان أهل المدينة في أواخر حياة النَّبي ﷺ بل أكثرهم على صفة النفاق، والله تعالى يعرب في آيات من سورة آل عمران عن الوضع الإيماني للمسلمين في حرب أُحد، ولكي نتعرف على إيمان أهل المدينة أكثر وأكثر فسوف نعمد في مستقبل البحث إلى التحقيق حول هذه الآيات إن شاء الله تعالى.

تقييم إيمان مسلمي المدينة:

أكل الربا في المدينة:

تدلّ آيات من سورة آل عمران المباركة على واقعيّات عجيبة، يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[٢]

فالمخاطبون بهذه الآية هم المؤمنون، وهؤلاء نهاهم الله تعالى عن أكل الربا،

---

١. أشار الذهبي إلى أنَّ موت عبدالله بن أبي كان في السنة التاسعة في ذي القعدة. (راجع: الذهبي، تاريخ الإسلام: ١/ ٤٤٢) ولكن أهل السنة من المفسرين يرون أنّ سورة المائدة نزلت جملة واحدة على النَّبي ﷺ في السنة العاشرة في حجة الوداع (راجع: السيوطي، الدر المنثور: ٣/ ٣ ـ ٤).

٢. آل عمران (٣): ١٣٠.

ويذكرهم بالتقوى لعلّهم يفلحون.

ولكن وقعت مغالطة في كتب السيرة حول الآية، وأُلقيت على هذا النحو في الأذهان: أنَّ الربا خاص بمشركي مكة، وآيات الربا نزلت فيهم، بينما خصّت الآية الربا بالمؤمنين ونزولها في المدينة في حرب أُحد، ولئن كان المشركون ملوّثين بالربا، إلا أنَّ المخاطبين هم ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وليس هم المشركين، ومن هذا المنطلق نعلم بتلوث المؤمنين بالربا أيضاً.

والروايات الّتي ربطت هذه الآية بواقعة أُحد لا أساس لها، إلا أنَّ التحقيق في ظروف أهل المدينة الاجتماعية والاقتصادية يمكن أن يوصلنا إلى الظنّ المتاخم لليقين.

إذ وقعت حرب أُحد في ظروف لم يكن المسلمون فيها يملكون أبسط الأدوات والعدد الحربيّة، كالسهام والسيوف، وكان سلاح الجلّ فيهم جريد النخل.

ولكنّ المؤرخين لم يشيروا إلى ذلك، ويظهر من هذا أنَّ المسلمين في الفترة الزمنية بين الحربين ـ وهي سنة واحدة ـ تهيأ لهم التجهز على أقل تقدير بالسيوف والرماح، مضافاً إلى أنَّ المسلمين كانوا يطمعون يومئذٍ بحيازة غنائم قريش كما حازوها في بدر، وهذا الأمل الحلو كان يحملهم على العناية بتسليح أنفسهم، ولكنّ وضعهم الاقتصادي في أول عهدهم بالهجرة لم يكن على ما يرام، وهذا الظنّ يقوّي ما يتبادر إلى الذهن من أنّهم من أجل تسليح أنفسهم اضطروا للاقتراض من المشركين على نحو الربا على أمل أن يردّوا المال إلى أهله مما تفيض عليهم الغنائم من الثروة، وأن يوسّعوا على أنفسهم وعيالهم.

وفي هذه الآية حقائق تنبغي ملاحظتها:

الحقيقة الأولى: أنَّ الله تعالى لم يقل في الآية «لا تعطوا الربا»، لأنَّ هذا أمر تقضي به الضرورة العرفية في المدينة يومذاك، وليس معنى هذا أنَّ أخذ الربا محظور ودفعه مباح، ولكنَّ فحوى الآية يدل على أنّ الضرورة العرفيّة تدل على أنَّ المسلمين يتعذرون أمام النَّبيﷺ ويقولون لا حيلة لنا، وأنّنا نأمل الفوز في حرب أُحد بما نغنم من أموال المشركين، فاقترضنا بالربا، وفي هذه الظروف الّتي اتقدت فيها الحرب قد خلَت من الغنائم مطلقاً، وليس هذا فحسب، بل دارت الدائرة على المسلمين فخسروا فيها خسائر فادحة. فيقول الله تعالى: ﴿**لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً**﴾[1] لأنَّ ظروف الناس الاقتصادية بعد حرب أُحد كانت على نحو عجز المسلمون فيه عن تأدية ديونهم وتسديدها، وكانت الأرباح المكدسة عليهم والربا المتواتر قد جعلت الحالة المعيشية لهم أسوأ مما كانت عليه من قبل.

ومن أجل ذلك نزلت الآية الشريفة مذكرة المؤمنين أن لا يقحموا الوضع المتأزم في مسار حياتهم، بزعم أنَّ الوسائل عقمت والضرورة قاضية بالربا، فأمرهم أن يستردوا ما أعطوه أضعافاً مضاعفة إلى حوزتهم.

الحقيقة الثانية: أنّ الله تعالى يقول في آية أُخرى من سورة البقرة المباركة: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ**﴾[2] فلو أنَّ الله تعالى قال: «فلكم ما أقرضتم» لوجب رد المقدار الّذي أعطي قرضاً، ولكنّه حين يقول: ﴿**فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ**﴾ أي: خذوا رؤوس أموالكم، وظاهرها هو المتاع الّذي يدفع في قبال المال،

---

١. آل عمران (٣): ١٣٠.

٢. البقرة (٢): ٢٧٩.

ولو حدث يومئذ تضخم في السلع المتبادلة، فنقصت عن معدلها الأول. وهنا يلحق الضرر بالمقرض ويقع الظلم عليه، بينما يقول الله تعالى: ﴿لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ فلا يلحق الضرر بمن أقرض ولا بمن اقترض.

وبناءاً على هذا الأساس تقول الآية ١٣٠ من سورة آل عمران المباركة: ﴿لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾ ومعناها: لا تأكلوا قرضكم على شكل تضخم، وهو تعبير خاص عن الربا فإذا كان القصد من القرض هو شراء المقرض للقرض يومئذٍ، فإنّه لا يدخل تحت مفهوم «أضعافاً مضاعفة»، ومن ثمَّ نقلوا عن ابن عباس أنَّ الربح إذا كان بصفة معقولة مع أخذ التضخم بالاعتبار، بحيث يتناسب مع تفاوت القيمة، فلا يعدّ رباً.

إيمان المسلين المتأرجح:

يشير الله تعالى في سياق آيات سورة آل عمران المباركة إلى الوضع الإيماني للمسلمين في السنة الثالثة للهجرة مرة أخرى، فيقول:

﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.[1]

ويستمر الله تعالى واعظاً المؤمنين في الآيات التالية فيقول:

﴿وَأَطِيعُواْ الله وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[2]

---

١. آل عمران (٣): ١٣١.

٢. آل عمران (٣): ١٣٢ ـ ١٣٣.

ثم يكشف الباري سبحانه الستار عن عدد من صفات المؤمنين، فيقول:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[١]

وفي هذه الآيات ربما كان موضع للتأمل، وهو: لماذا اختص الله تعالى هذا الظرف ـ أي: السنة الثالثة من الهجرة، وفي حرب أُحد بالذات ـ موضعاً لنزول هذه الآيات، وكشف هذه البيانات؟

وبعبارة أخرى: لو كان الله تعالى في مقام الوعظ للمسلمين الجدد، وأطلق هذه البيانات، لكان ذلك من الطبيعي، ولكنَّ هذه المواعظ تأتي بعد مرور ستة عشر عاماً من بعثة النَّبيﷺ، ويدل هذا الأمر على بروز واقعيّة جديدة ابتلي بها المؤمنون لا تنسجم مع حرمة إيمانهم[٢]، إذ في هذه الآية يحث الله المؤمنين على طلب المغفرة، فيظهر من ذلك أنّهم أقدموا على ارتكاب سيئة تستحق أن يطلب لها الغفران، وتعقد لها التوبة، وأن يتوسلوا إلى الله في طلب المغفرة لينالوا الجنة الّتي وعدهم بها.[٣] ثم يعد

---

١. آل عمران (٣): ١٣٤.

٢. افترض على سبيل المثال أنَّ معلماً ما في إحدى المدارس راح يعظ تلاميذه ويذكرهم بواجباتهم، فهذا أمر طبيعي، ولكن لو انبرى معلم آخر فوعظ تلاميذه دفعة واحدة بمواعظ مكررة من أجل النصيحة، فهذا يدل على وقوع حادثة جديدة، وأنَّ التلاميذ على رغم النصائح السالفة والمواعظ المتقدمة قد عمدوا إلى ارتكاب أخطاء فظيعة جديدة.

٣. اتساع الجنة أمر عظيم ، وهو فوق تصورنا، ويقول الله عن اتساعها: «وسع عرضها السماوات والأرض» ويبدو هذا الاتساع في نظر البعض أمراً شاسعاً بعيداً، ولا بدع أن يجر المرء إلى إنكاره، ولكنَّ مثالاً واحداً يجعل هذا البعد أمراً مقبولاً، وهو لو قيل للجنين: إنّك ستنتقل إلى موضع أكبر بكثير من رحم الأمهات كلهنّ، فإنّه سوف لا يتوجه لذلك، ولكن بعد خروجه للدنيا سوف يدرك أنّه حتى مهده أكبر من رحم أمه مرات ومرات.

المتقين في الجنة، وليس المسلمين عامة، فمن الّذي يعنيه الله بالمتقين من المسلمين في الآية، فيعدد صفاتهم في الآية التالية على النحو التالي: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]؟ فلو أنّنا قارنا بين أوصاف المتقين المذكورة في ابتداء سورة البقرة[٢]، سندرك التفاوت بينهما، وكل منهما يؤكد مزايا خاصة ـ لأهل التقوى ـ. وهذا التفاوت منوط بالظروف الراهنة الّتي يعيشها المتقون، لأنه كما مرّ بيانه أنَّ المؤمنين اقترضوا قرضاً ربويّاً من أهل المال المثرين طمعاً بغنائم قريش القادمة، ولكنّهم خسروا المعركة بعد الهزيمة، لذلك عجزوا في حينها عن تسديد ديونهم. وكان النّبيﷺ من أجل إعادة رأس المال إلى أصحابه بحاجة إلى معاضدة المسلمين، ولكن لم يكن أحد منهم مستعداً لذلك، ومن ثمَّ خاطبهم الله تعالى بقوله: إذا كنتم راغبين في جنات النعيم، فعليكم بالتقوى، ومن دلائل التقوى الإنفاق في العسر واليسر، والآن وإن كان كلّ واحد منكم له من مشاكله المالية ما يشغله عن الإنفاق، ولكن مع ذلك يلزمكم الإنفاق كلٌّ بمقدار وسعه في سبيل الله تعالى.

وأما ما يُلتمس من المعنى في الوصف الثاني للمتقين ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٣] فإنّه حدث في بواطن المسلمين بعد حرب أُحد اختلاف جرَّ إلى احتدام

---

١. آل عمران (٣): ١٣٤.

٢. يذكر الله تعالى في الآيات ٣ ـ ٥ من سورة البقرة صفات المتقين على النحو التالي: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٣. آل عمران (٣): ١٣٤.

النزاع بين القوم، وألقى كلّ واحد بتبعة الهزيمة على عاتق الآخر، واغتنم المنافقون الفرصة السانحة، فسعوا في إيغار الصدور وإشعال نار الفتنة ما وسعهم ذلك، فكان مصداق التقوى يومئذ هو كظم الغيظ والعفو عن الناس.

وإلى هنا عطف الباري سبحانه أذهان القوم إلى جملة من أخطائهم واشتباهاتهم، ولكن في الآية التالية أماط الستار على خطايا أكبر وذكّر المؤمنين بها، وهذا هو كلام الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.[١]

والّذي يصل إلى إدراكنا من هذا الكلام أنَّ الله تعالى يقول: لو أنَّ المؤمن أقدم على ارتكاب خطيئة كبرى أو ظلم نفسه، فإنّه يذكر الله ويستغفره.

ومعنى هذا أنَّ المؤمنين في وقعة أُحد ارتكبوا خطيئة فاحشة[٢]، فظلموا أنفسهم، ولكنهم بعد انقضاء الحرب بقوا على حالهم، فلم يذكروا الله، ولم يتلافوا ذنوبهم، أو يُظهِرُوا الندم ويستغفروا ربّهم، بل كلّ ما فعلوه هو الاعتذار إلى بعضهم البعض، فلذلك يقول لهم ربّهم: «ومن يغفر الذنوب إلا الله، فاستغفروه وتوبوا إليه، لأنّكم عصيتموه، فلا تطلبوا مغفرة بعضكم».

---

١. آل عمران (٣): ١٣٥. الفاحشة: هي الذنب الكبير جداً الّذي لا ينبغي للمرء أن يقربه، مثل قوله تعالى ـ في سورة الأعراف الآية ٢٨ ـ الذي يشير إلى ذنب من ذنوب الجاهلية قبيح جداً، فيقول: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ فإنهم هنا عزوا الفاحشة اللواط إلى آبائهم، وأنَّ الله أمرهم بها، ولما كانوا متصلين بدين إبراهيمﷺ بزعمهم؛ لذلك خاطبهم الله بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء**﴾.

٢. سمّى الله تعالى مواطئة المؤمنين للمنافقين، وفرارهم من الزحف، وترك النّبي وحده في وسط المعركة، فاحشة.

وفي الختام ينصّ على هذه النكتة وهي: لا أنّ المؤمنين لم يذكروا ربّهم، ولم يستغفروه على ذنوبهم فحسب، بل هم مصرون على ما فعلوا، بحجة أنّهم مجبورون على مماشاة المنافقين، فيذكرهم الله تعالى بقوله: إنّ المتقي عند ما يعرف خطأه أو خطيئته، فإنّه لا يصر عليها، ويعترف بها أمام الله، ويطلب من الله تعالى غفرانها لا أنّه يعتذر إلى أصحابه بعد أن عصى الله تعالى.

وبعد عَدّه سبحانه خصال المتقين يعود مرّة ثانية فيذكرهم بجزائهم يوم الجزاء، فيقول:

﴿أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.[1]

تكذيب الله والرسول ﷺ:

وبعد أن بيّن الله تعالى صفات المتقين، ودعا المؤمنين إلى التقوى، خاطب المسلمين عامة، فقال:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.[2]

فما هي هذه السنة الإلهية الّتي كشف الله القناع عنها في هذه الآية؟ وما الّذي يريده الله بهذه السنة من سائر سننه؟! الّذي يستفاد من سياق كلام الله ويظهر لنا جليّاً، هو

---

١. آل عمران (٣): ١٣٦.

٢. آل عمران (٣): ١٣٧ ـ ١٣٨.

أنّ الله تعالى بعطفه الأذهان إلى سننه يريد تلك السنة الّتي يقابل بها المكذبين، فيذكّر بها من جهة أخرى.

فإنّ أقوال الله تعالى تطابق الظروف الخاصة للمخاطبين، والأوضاع الاجتماعية والاعتقادية لهم، ولذا يستفاد من هذه الآية الّتي نزلت في المدينة ـ في السنة الثالثة للهجرة ـ يعني ستة عشر عاماً بعد البعثة، وبعد حرب أُحد ـ أن جلّ المسلمين حدثت لهم انتكاسة في العقيدة، وأدّى ذلك إلى تكذيبهم الله ورسوله، وكان ذلك من أثر ما يلقيه المنافقون في روعهم، لأنَّ المنافقين لم يكونوا قد آمنوا بالله ورسوله ساعة قطّ، وكانوا يكذبونها في باطنهم، ولكن لم يتسع الظرف لنفث سمومهم وإظهار ما في قلوبهم. ونأخذ مثالاً على ذلك حرب بدر، حيث انتصر المسلمون نصراً إلهياً بخلاف المعادلات الظاهرية، فلم يبق موضع لأقوال المنافقين، ولكن في حرب أُحد بعد أن حلّت الهزيمة بالمسلمين وجدوا المجال متسعاً لشيطنتهم وإيحائاتهم، وراحوا يوحون للمسلمين أنَّ الوعود الّتي أعطاها محمد لهم ما هي إلّا كذب وتمويه، فأحياناً تصيب كحرب بدر، وأحياناً تخفق كحرب أُحد، وشيئاً فشيئاً راجت هذه الإيحاءات بين المسلمين، واتسعت وتمكنت منهم.[١]

---

١. النكتة الجديرة بالملاحظة في هذا البحث هي الفرق بين التكذيب والكفر، فما هو الفرق الأساسي بين المكذب والكافر؟ ولماذا لم يذكر الله تعالى المسلمين بعاقبة الكافرين؟ المعنى اللغوي للكافر هو الساتر، وفي اللسان أن الدين أخذ هذا المعنى، واعتبر الكافر هو الساتر للحقّ، وأما المكذب فهو الّذي يكذب الحقّ، وبعبارة أخرى: أنَّ الكافر ينكر الحقيقة من البداية ويسترها، وأما المكذب فهو علاوة على ما بيديه من ستر الحقيقة وردّها فإنّه يكذب الحقّ، فالإنسان أحياناً لا يسلم بالحق، ولكنه أحياناً لا أنه لا يسلم بالحق فحسب بل يكذبه أيضاً، والله يعذب المكذبين؛ لأنَّ الغاية من إرسال الرسل هو من أجل هداية الكافرين، ولهذا يمهلهم في الدنيا، ولكي نثبت ذلك نمثل له بقوم لوط، فإنَّ العذاب لما نزل عليهم لتكذيبهم نبيّهم

الإرتداد إلى الشرك:

وبعد أن علم المسلمون بإشاعة قتل النَّبيﷺ لاذوا بالفرار، فعاتبهم الله على ذلك بإنزال هذه الآية الشديدة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾.[1]

كان في عهد هذا النَّبي أقوام آخرون من غيرهم، ولكنّهم مع كفرهم لم يعمّهم العذاب، وأحاط بقوم لوط وحدهم، وبالطبع فإنَّ المشركين كذبوا النَّبي، وقد أشار القرآن إلى نماذج من تكذيبهم مثل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ [الفرقان (٢٥): ٤] أو مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر (١٥): ٦]، أو قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام (٦): ٦٦] وبناءاً على هذا ليس معنى ما ذكرناه أنَّ المشركين لم يكذّبوا النَّبي، ولكنّ المخاطبين في آية البحث هم المسلمون، وقد نزلت في السنة الثالثة للهجرة بعد حرب أُحد في المدينة، أي: أنّ المسلمين بلغوا حداً من الضلال أدى بهم إلى تكذيب النَّبيﷺ ولا دليل على تكذيبه في تلك الظروف الراهنة إلا ما اغتنمه المشركون من الهزيمة في الحرب، والشيطنة الّتي حاكوها، والإيحاءات الّتي نفثوها في روع المسلمين، مؤسسةً على عدم تحقق الوعود الإلهية في حرب أُحد ليس إلا، فيكون الوعيد عندئذ متجهاً إلى المسلمين، وفي الوقت نفسه كشف الله عن موقفه من المكذبين للجميع، فقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران (٣): ١٣٨] فأعلنَ موقفه إزاء المكذبين لرسوله للجميع، وأما هذا التهديد فباعتبار كونه لا يزيد الكافرين إلا شقاوة وخبثاً، وهو نافع للمؤمنين وأهل التقوى وحدهم، ومؤثر فيهم دون من عداهم، ويزيدهم هدى إلى هداهم؛ لذلك كان لهم نصحاً وموعظة، وليس للكافرين فيه ثمرة ترتجى إلا ما يضيفه من خبث إلى خبثهم، وفي موضع آخر يظهر الله الحقيقة على نحو آخر فيقول: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة (٩): ١٢٤ـ ١٢٥] وبناءاً على هذا فإنَّ الآية المبحوث عنها لا يقول الله فيها أيضاً: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حتى ينكر المنافقون ذلك، ويقولوا هذه الآية كذب أيضاً فنحن لم نهتدِ ولم تؤثر فينا الآية، ونسب ذلك ـ أي: الموعظة والهداية ـ إلى أهل التقوى.

١. آل عمران (٣): ١٤٤.

فهذه الآية من الآيات المهمة الّتي تصور إيمان المحيطين بالنَّبيﷺ تصويراً واضحاً في العام الثالث من الهجرة وتكشف بواطنهم وشمائلهم لتراها العيون.

من ثمّ ينبغي علينا أن ندقق في هذه الآية ونبحثها من جوانب عدة، ونبذل جهداً متميّزاً في تدبر مفرداتها وتراكيبها، ونتأمل في معرفتها تأملاً حقيقياً.

وهناك جماعة من المسلمين حملوا معنى الآية على ما يستجد بعد وفاة النَّبيﷺ من حوادث، وهم يعتقدون على أنَّ الله أخبر عن ارتداد قوم عن الإسلام بعد وفاة النَّبيﷺ.

وجماعة من أهل السنة يقولون في الرد على مفسريها على خلاف هواهم إنَّ في الآية قضية شرطية، وليست حملية، أي: أنَّ الله تعالى يسائل المسلمين: هل بقاؤكم على الإسلام مشروط ببقاء النَّبي على قيد الحياة، فإذا مات أو قتل رجعتم إلى دينكم الجاهلي السالف؟

ونحن لكي ندرك مغزى المطلب وحقيقته، بعد بحث الآية جزءاً جزءاً، سوف ندرس الآية من هذه الناحية حتى تتجلّى لنا نواح أكثر في الآية، وتتضح لنا على وجه اليقين.

يقول الله تعالى في مطلع الآية: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾**. ولابد من معرفة الغاية من تصدير الآية بهذا الجزء المضيء منها، لكي نضع يدنا على المفهوم الكلي من إيرادها.

وبعبارة أخرى: يلزمنا الوقوف على السرّ الّذي جعل الله ينزل هذا المعنى في السنة الثالثة من الهجرة، فهل معنى هذا أنَّ القوم ـ بعد ستة عشر عاماً من البعثة ـ ما زالوا

على الاعتقاد بأنَّ الله لم يرسل رسولاً إلّا نبيّه محمّداًﷺ؟

والجواب على هذا التساؤل واضح جداً، فإنَّ السور النازلة في مكة مشحونة باسماء الأنبياءعليهم السلام والحوادث الّتي صاحبت حياتهم، فلا مجال لطروّ مثل هذا الوهم على الخاطر.

وبناءاً على هذا، ينبغي أن يقال: إنَّ قول الله هذا ردٌّ على خبث المنافقين الذين يلقونه إلى الناس، فيقولون: لو كان محمد نبياً لحفظه الله تعالى ولا مسؤولية علينا تجاهه. لذلك يجيبهم الله بأنَّ أنبياءاً كانوا على الساحة قبل أنبيائكم، وكما قتل أولئك بأيدي أعدائهم[١] فإن نبيّكم بالإمكان قتله بيد عدوه إذا تفاضيتم عن حراسته، وعليكم العهدة التامة في المحافظة عليه. فيذكرهم سبحانه بأنّه مثلهم وليس جسده من الفولاذ لا تنفذ فيه الشفار القاتلة، فهو بحاجة إلى من يحفظه ويحرسه.

وفي ختام الآية يريد الله تعالى أن يفشي خبث المنافقين الشديد، ولكن كما سبق تواً أنَّ أهل السنة لجأوا إلى المغالطات الكثيرة. وبناءاً على هذا من المناسب أن نجري بحوثاً حول سياق الآية معمّقة ونجريها على شكل مناقشات:

المناقشة الأولى: هي أنّ الجملة شرطية، وفي الوقت نفسه تحمل معنى الاستفهام، ومن ثمَّ لا يمكن حملها على معنى ارتداد المسلمين.

---

١. حول هذا الموضوع نزلت آيات كثيرة، ونحن نشير إلى بعضها على نحو المثال لا الحصر، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة (٢): ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة (٢): ٩١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل‌عمران (٣): ١١٢].

ونقول في الجواب، أولاً: الجملة الشرطية لا تنافي الخبرية، إذ الشرط لايصح في الإنشاء، لأنَّ الإنشاء ينبغي أن يكون قطعياً ومطلقاً، ولكن يصح في الإخبار، وصحة الإخبار منوطة بتحقق الأمر الواقع في الخارج، سواءاً كان شرطياً أو مطلقاً، غاية الأمر أنَّ الجملة إذا كانت شرطية وكانت هنالك ملازمة بين الشرط والمشروط (الجزاء)، فإنَّ المشروط (الجزاء) يتحقق بتحقق شرطه، لذلك نقول: وإن كان في الآية توجد جملة شرطيّة، ولكنها أيضاً إخبارية، ولو أنَّ الشرط يتحقق فإن المشروط مثله.

وبناءاً على هذا لو كان شرط ارتداد المسلمين منوطاً بوفاة النَّبيﷺ أو بقتله، فإن المشروط هنا يقع حتماً، ونحن لا ندعي بأنّ المسلمين ارتدوا على الأعقاب والنَّبيﷺ بين ظهرانيهم، بل نقول إنّهم ارتدوا بعيد وفاته، والسيرة تُصدِّق ما ذهبنا إليه، فقد جاء فيها أنَّ علة هرب المسلمين في أُحد هو نشر الإشاعة الكاذبة فيهم بقتل النَّبي، لذا نزلت هذه الآية وخاطب الله المسلمين بقوله: لو أنّ النَّبي مات أو قتل ترتدون على الأعقاب. وعلى هذا الأساس فقد خامر المسلمين في حرب أُحد دفعة واحدة شعور بأنَّ شرط ردّتهم هو قتل نبيّهم أو موته، والآن قد حصل ما حذروه، فلذلك فرّوا بأجمعهم وارتدّوا، وحقق المسلمون هذا الشرط مرّة أخرى، بوفاة النَّبيﷺ فارتدّوا.

وأما ما يقال من: أنّ الآية فيها معنى الاستفهام، فينبغي أن يقال: إن الاستفهام، تارة: يكون من أجل المعرفة وخروج الإنسان من دائرة الجهل والشك، وتارة: يأتي للإخبار عن علم المستفهم بحال المخاطب، أي: أنه يسأل ليخرج عن معنى الجهل والترديد، وتارة: يأتي الاستفهام لمعرفة أحوال المخاطب.

ويمكن أن يتضح الوجه بالتدقيق في المثال التالي: لو أنّ معلماً ألقى على تلاميذه هذا

السؤال، هل أنكم تعتقدون بنجاحكم بدون حفظ الدروس في الامتحان؟ من الواضح أنَّ المعلم لا يسأل ليخرج بسؤاله عن دائرة الجهل، لأنَّ الأمر مكشوف لدى المعلم فإنَّ من لا يدرس لا ينجح، ولكنه بسؤاله يشير إلى تكاسل تلاميذه، وليخبرهم أنه علم بحالهم، ولا يصدق على ذات الباري الشك أو الجهل، وأنّه سبحانه منزهٌ عنهما، وعالم بالوجود كلّه.

وبناءاً على هذا، فإنَّ سؤال الله تعالى جاء لكشف واقع المخاطبين، والله سبحانه يخبر عن حقيقة المسلمين ويقول: أنتم اتخذتم قراركم بأنَّ النَّبي إذا مات أو قتل سترجعون إلى أديانكم السالفة، وهي الشرك والجهل، لذلك يحذّرهم من إجراء هذا القرار.

وبناءاً على هذا، فقد اتضح بأنَّ المنافقين كانوا يوحون إلى المسلمين أنّ دين محمد قائم ما دام حيّاً، فإذا ما مات زال دينه، وكذلك قتله سبب لاندثار الدين وعودة الجاهلية، واتفق الأكثريّة من أهل المدينة على هذا الأمر، والله تعالى أخبر بهذه الآية عن تبلبل أحوال المسلمين وأعلن لهم أنّ توخيهم على هذا النحو خطأ فاضح، وأنَّ إيحاءات المنافقين ضرب من الكذب ليس إلّا، لأنّه جاء قبل نبيّ الإسلام أنبياء وكانت لهم أديان، ولم تكن موكولة إلى زمان حياتهم، ولم تندثر بموتهم، ودينكم الإسلام لم يكن قائماً بحياة نبيّه، ولا تظنّوا أنّكم عائدون إلى أديانكم الماضية.

والنكتة الدقيقة كامنة في قوله تعالى: ﴿**ماتَ أَوْ قُتِلَ**﴾، ومعنى ذلك أنَّ المنافقين مضافاً إلى ما روّجوا له من فناء الدين برحيل صاحبه، فإنّهم لم يضعوا فرقاً بين موته وقتله.

وعلى هذا الأساس يغرون الناس بقتله، ويزعمون أنّهم على دينه ما دام حيّاً، فإذا

فقد «بموت أو قتل» فلا يبقى علينا ذمام للإسلام.

وبهذه الطريقة قذفوا بإيحائاتهم في عقل الناس اللاواعي، وأوهموهم أنّهم لكي يتخلصوا من أسار الدين سريعاً، عليهم قتل النَّبيﷺ.

فلو أنَّ سائلاً سأل: لماذا لم يقل الله تعالى بدل «قُتل» المبنية للمجهول «قتلتموه»؟

فإننا نقول في الجواب: لو أنَّ الله صرح بذلك لارتفعت عندئذٍ عقيرة المسلمين بأننا لم نرد فعل ذلك، بل مات حتف أنفه، أو قتله المشركون، ونحن فعلنا ما ينبغي فعله.

وأما السؤال الآخر الّذي ينبغي وضعه هو: ما الموجب الّذي حمل على جعل الجملة استفهامية؟ فلو أنّه قال: «فإن مات أو قتل» لكان المعنى أشد وضوحاً وأقرب إلى متناول الأفهام.

فنقول في جوابه: إنَّ الاستفهام مصحوب بالإنكار على المخاطب، وأنّه مانع من جرأة المخاطب.

فلو أننا أخبرنا عن حال أحدهم بدون استعمال الاستفهام، فإنّه يتجرأ على الفعل، ولكن في الاستفهام الإنكاري إذا ما جُوبِهَ المخاطب به فإنّه ـ مضافاً إلى تقريعه ـ تكون المقابلة معه من موضع القوة.

ويمكن أن يقال: إن الاستفهام يجري لأخذ الإقرار، مثل آية الميثاق، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾[1].

---

١. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف (٧): ١٧٢).

وكذلك هنا فإنَّ السؤال ليس على حقيقته من تجاوز الشك والخروج من الجهل، بل هو لإقرار العباد على أنفسهم.

ونقول في الجواب: لو كان الفرض طلب الإقرار من المسلمين في السنة الثالثة للهجرة على ثبات أقدامهم في الإسلام، لزم المسلمين القدوم إلى النَّبيﷺ بأجمعهم للإقرار بذلك، ولكننا نجد كتب السيرة خالية من هذا التوجّه، كما أنَّ ختام الآية لا يدل على وقوع ذلك أو طلبه منهم.

وبعبارة أخرى: لو كان غرض الله أخذ إقرارهم، لكان عليه بيان النتيجة، كما بيّن ذلك في آية الميثاق، حيث اعترفوا كلهم بربوبيّة الله، فرفعوا أصواتهم بقول «بلى».

وعلى سبيل المثال ينبغي أن تكون الآية على هذا النحو «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ لا، بل أنتم أجل من ذلك»، يعني جواب الإقرار إمّا أن يكون من الله أو من المسلمين بمجيئهم إلى النَّبيﷺ معلنين ذلك، ولا نجد ذلك موجوداً عملاً في القرآن أو كتب السيرة.

وبناءاً على هذا، مع أنَّ الآية قضية شرطية، والله تعالى عبّر عن غرضه فيها بالاستفهام، ففي نفس الوقت يفصح عن تصميم المسلمين بل أكثرهم، لأنَّ المخاطب في الآية جميعهم، ولذا فإنَّ تصميم الارتداد واقع من الأكثرية، فلو نسب إلى جميع الناس لا يتناول الأقلية، ولكي نفهم معنى الآية فهما رقيقاً، فعلينا بحثها من جهة أخرى بحثاً دقيقاً، وتلك الجهة: هي قياس هذه الآية بنظائرها.

فقد أشار الله تعالى إلى موت النَّبيﷺ في آيات أخرى غير هذه الآية، والآن نأخذ بيد القارئ إلى بحثها لبلورة الموضوع. يقول الله تعالى في موضع آخر:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.[١]

وهذه الآية تتفاوت مع الآية المبحوث عنها مِن جهات:

أولاً: المخاطب بها هم المشركون، أي: أنَّ المشركين يتمنون الموت للنبيﷺ، ويقول لهم الله: لا أحد في الدنيا يخلد، فإذا كان النَّبيﷺ يموت، فأنتم تموتون أيضاً، وبعد الموت يصيبكم العذاب والبؤس، وأما النَّبي، فإنه بعد الموت يبدأ نعيمه وينال الرتب الإلهية الظاهرة، وأما المخاطب ـ في الآية ١٤٤ آل عمران ـ فهم المسلمون.

وثانياً: في هذه الآية جرى الحديث بصفة عامة عن موت الناس قاطبة، ولكنَّ موضوع الآية مورد البحث هو موت النَّبيﷺ أو خلوده.

ويمكن لإنسان أن يقول: إنَّ المخاطب في الآيتين هم المشركون، ولكن في آية منهما يحدثهم الله تعالى عن عدم خلود البشر عامة، وفي الأخرى منهما يحدثهم عن موت أنبياء الله خاصة. ويجب أن يقال: إن كان المخاطب هم المشركون فلا فرق عندهم بين الأنبياء وبين سائر الناس، وهم أساساً ينكرون النبوّة والرسالة.

ويقول الله تعالى في موضع آخر:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.[٢]

وهذه الآية خطاب مع النَّبيﷺ، فيقول له: أنت ميت أيها النَّبي، وإنَّ هؤلاء الذين آذوك وآذوا أهل بيتك، وغصبوا حقّهم سيموتون كذلك، ويحاكمون يوم

---

١. الأنبياء (٢١): ٣٤.

٢. الزمر (٣٩): ٣٠ ـ ٣١.

القيامة بين يدي الله تعالى. والمخاطب بهذه الآية المنافقون، ولكن لتظاهرهم بالإسلام لا يقدرون على التصريح بما تكن خواطرهم وتُخفي نفوسهم.

ولما عجزوا عن ذلك في حياة النَّبيﷺ، تعاهدوا فيما بينهم على الانتقام من أهل بيته.[١]

لذلك يخاطب الله نبيهﷺ ويخبره بموت المنافقين أيضاً، وأنهم إن لم يجازوا في دار الدنيا، فإنَّ جزاءهم الأخروي بالمرصاد لهم، وأنَّ هؤلاء الذين آذوك وأهل بيتك سوف يناهم الجزاء غداً.

وبناءاً على هذا، فبين هذه الآية وبين الآية المبحوث عنها وجه انسجام، حيث المخاطب بهذه الآية رسول اللهﷺ.

وفي كلا الآيتين يكشف الله تعالى مؤامرة المنافقين، وليس في أيٍّ منهما موقف ظاهري للمسلمين يعلنون به عن موقعهم من الأحداث بصفة علنية، وكلتاهما تتحدثان عن نفاقهم.

وأما الطائفة الثالثة من الآيات الّتي تناسب الآية المبحوث عنها، فهي الآيات الّتي تؤكد الجانب الإنساني عند الأنبياءﷺ، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾.[٢]

---

١. ويخبرنا التاريخ: أنّهم عملوا بما تعاهدوا عليه، وتأتي مصائب الزهراءﷺ وفجيعة شهادة يوم كربلاء في رأس الخطة.

٢. الأنعام (٦): ٨.

ومن الواضح أنَّ المخاطب هنا هم المشركون، وهم الذين يختلقون الأعذار والحيل، فيجيبهم الله تعالى: لو أُنزل الملك لتمت الحجة على أهل الأرض. ويجري الخطاب من الله لهم فيجيبهم جواباً آخر، فيقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[١] وهذه كناية منه سبحانه أنّ من يراد منه الاتصال بالبشر ينبغي أن يكون محسوساً ومن سنخهم، ولو أنَّ ملكاً قُدّر له أن يكون رسولاً لصوّر بصورهم، وأُلقيت عليه أشكالهم، وفي هذه الحالة يأتي نفس التوهم الّذي تذرّعوا به.

وعلى أية حال فمن المسلّم به أنّ الحديث كله جرى مع المشركين، لأنّ من لوازم التظاهر بالإسلام قبول مبانيه، ولذا في الآية المبحوث عنها والمخاطب بها المسلمون لا يمكن أن يقال: إنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[٢] بيان موضوع أنّ النَّبيﷺ كسائر الأنبياءعليهم السلام وليس ملكاً، وقد قدّر عليه الموت كما قدّر عليهم. وليس هو مخلدٌ، لأنَّ من تظاهر بالإسلام لابدّ وأن يكون قد تقبل هذه اللوازم وآمن بها.

وبناءاً على هذا، لا وجه للآية إلّا هذا الوجه، وهو أنَّ المسلمين قد نووا الارتداد بعد موت النَّبيﷺ فأطلعهم الله على علمه بما يدبرونه، وحذرهم عن تنفيذ ما نووا تنفيذه.

وشاهدنا على هذا المدّعى: تمام الآية، حيث يقول: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾. ويعيد القول مجدداً بأنَّ السيرة ذكرت أيضاً ما عزم عليه المسلمون من الارتداد بعد وفاة النَّبيﷺ، لأنَّ السيرة تقول في تفسير هذا المعنى من الآية هذا القول: «أي: لقول

---

١. الأنعام (٦): ٩.

٢. آل عمران (٣): ١٤٤.

الناس قتل محمد صلي الله عليه [وآله] وسلم وانهزامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوّهم»[١]، يعني ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ إشارة إلى هزيمة المسلمين وتركهم القتال بعد انتشار إشاعة قتل النَّبيﷺ. وبهذا الدليل لما تبلورت مسألة قتل النَّبيﷺ في أُحد وإن كانت في حدود الإشاعة، فإنَّ المسلمين أبرزوا معنوياتهم في الارتداد وأظهروها.

وبناءاً على هذا نعود فنقول: إنَّ الآية تتضمن قضيّة شرطيّة، وتحقق المشروط لازمه تحقق شرطه، ولما كان شرط الارتداد عندهم موت النَّبيﷺ أو قتله وقد تحقق فإنَّ تحقق المشروط وهو الارتداد واقعٌ عملاً.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ الذين يقولون بأنَّ الشيعة لا يعرفون القضيّة الشرطية، يغالطون بخبث وشيطنة، فإنَّ علماء الشيعة يعرفون القضيّة الشرطية معرفة جيّدة، ومن أجل هذا يرون أنَّ المنافقين لم يجرأوا على إظهار ارتدادهم والنَّبيﷺ على قيد الحياة، ولكنهم بعد وفاة النَّبيﷺ أظهروا نفاقهم علناً، وكانت هذه الآية مستند الزهراءعليها السلام في حجاجها مع المسلمين، وكانت خطبتها الفدكية تفسيراً دقيقاً وواضحاً لهذه الآية الكريمة، إذ يقول الله تعالى في مواصلة كلامه: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضرَّ اللهَ شَياً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِين﴾. أي: أن الله تعالى لا يحتاج لحفظ دينه إلى أحد حتى يؤثروا بارتدادهم على دين الله، وكما قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾[٢] ولكنه يذكرهم في نفس الوقت بأنَّ دوام الإسلام هو دوام نعمتكم، ومن

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١١٧.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة (٥): ٥٤).

شكر الله فإن الله سيجزيه ويحسن إليه، ولا ضرر من ذلك على الله تعالى، فإنَّ ارتداد المسلمين ضار بحالهم أنفسهم، ولا يضر الله شيئاً، وثباتهم على الدين نافع لهم.

وبعد أن كشف الباري سبحانه الستار عن نفاق المسلمين وأخبر عن ارتدادهم بعد مقتل النَّبيﷺ راح يؤكد على هذه النكتة، وهي: أنَّ جميع الاتفاقات لا تقع إلا بإذن الله تعالى، ولا تتم إلاّ على نحو المصلحة، والله تعالى لا يؤخذ على حين غفلة، حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.[١]

وطبقاً لما يقوله الله تعالى لا تقع الوقائع في العالم إلّا بإذن الله وبناءاً على المصلحة. وإذا كان أولياء الله يقتلون بيد أعداء الله، فإنَّ هذا أيضاً بإذن الله وبناءاً على المصلحة، وليس ذلك يكون بإغفال الله، ولا يقدر الكافر على مباغتة الله تعالى، وموت أي كائن بتقدير من الله، وهو عند الله مقدر وثابت.[٢]

وفي هذه الآية يخاطب الله المنافقين، فيقول: مهما تآمرتم على قتل النَّبيﷺ والعودة إلى جاهليتكم، فإنَّ إرادة الله غالبة على إرادتكم، وإرادته حفظ نبيّهﷺ حتى يتم دينه

---

١. آل عمران (٣): ١٤٥.

٢. من هذه الجهة كان أمير المؤمنين‍ؑ في صفين يرتجز بهذا الشعر فيقول:

أي يومي من الموت أفر   يوم لا قدّر أم يوم قُدِر

وكذلك سيد الشهداءؑ يقول لأصحابه يوم عاشوراء ـ بعد أن صلّى بهم صلاة الصبح «إنَّ الله قد أذن في قتلكم وقتلي» وبناءاً على هذا فإنَّ موت كل كائن مقدر عند الله إلا أن الأئمة ﷺ لأنهم أولياء الله يعلمون بهذا التقدير، ونحن لا علم لنا به.

ويكمله، لذلك لا تبلغكم مؤامراتكم ما تطمحون إليه.

وبناءاً على هذا، فإنَّ الله تعالى في هذه الآية وفي ختام الآية المتقدمة يؤيس المنافقين من مؤامراتهم، ويقول لهم: إذا أراد الله منع وقوع شيء وضع في وجهه السدود والعقبات، لئلا يقع، كما بيّن ذلك صريحاً في سورة التوبة: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[1].

ومن جهة أخرى، فإنَّ الآية التي تشير إلى خيانة المسلمين في وقعة أُحد إنّما هي بصدد بيان ذلك للمسلمين: من أنكم في يوم أُحد فررتم خشية الموت، فلا تحسبوا أنَّ أعماركم تطول في هذا العمل، لأنَّ الموت والحياة بيد الله تعالى، وثابت في تقديره تعالى، ومَن طلب الحياة في الدنيا فينبغي عليه أن يطلبها من الله تعالى، ولن يستطيع نيلها بنفسه، ولكنّ الله تعالى يثيب المرء الّذي يسعى لنيل ثواب الآخرة، وسوف يجزي الشاكرين سريعاً وعاجلاً.

النقاش مع النَّبي ﷺ في أمر الجهاد:

والآية التالية جاءت جواباً لواحدة من شيطنات المنافقين، حيث يقول سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.[2]

والّذي يبين لنا من كلام الله هذا أنَّ المنافقين كانوا يوحون إلى المسلمين أنه ما من نبيّ أمر بالحرب إلا نبيّ الإسلام، وبالطبع فإنَّ ذلك منعكس على كتب السيرة، وفيها شواهد دالة على ذلك، ومن ذلك الرواية المنسوبة إلى النَّبي ﷺ أنه قال: «خصصت

---

١. التوبة (٩): ٧٤.

٢. آل عمران (٣): ١٤٦.

بالحرب في نصرة الدين وخُصّت بي الغنيمة»[١].

ولذا يجيب الله بهذه الآية شيطنة المنافقين، فيقول: ليس كما يدعى بأنَّ أنبياء العهود الماضية لم يقابلوا العدو الّذي تصدّى بالرفض لدعوتهم، بل صرّحت الآية أنَّ أنبياءاً كثيرين[٢] جاهدوا في سبيل الله، واستشهد معهم من رجال الله رعيل كبير.

وبناءاً على هذا، فإنَّ الحديث المتقدم كذب محض نسبوه إلى النَّبيﷺ، وبهذا يريدون توجيه شيطنتهم.

والله تعالى مضافاً إلى بيانه لحقيقة أنَّ أنبياءاً كثيرين جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، فإنه أخذ بتعداد أوصافهم، فقال: رجال الله «ربّيون» لا يكلون ولا يملون من القتال في سبيل الله وفي ركاب رسول الله، ولا تقعد بهم المصائب النازلة بهم عن أداء دورهم، ولا يبدو عليهم الضعف أمام العدو، ولا يخضعون لهم أو يستسلمون.

ثم يصف في آية أخرى خصالاً أخرى للربّيّين فيقول:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.[٣]

وبهذه الآيات يخاطب الله المسلمين ويقرعهم فيما يرون من اختصاص القتال بالنَّبيﷺ وحده، فيخبرهم أنَّ القتال لم يكن مقتصراً عليه لتكرهوا القتال وتعارضوا

---

١. ولم يُستثنَ في كتب السيرة حتى داود وجالوت وأمثالهما من الذين وصفهم الله بالجهاد في دفع أعداء الدين.

٢. كأين بيان للكثرة.

٣. آل عمران (٣): ١٤٧.

نبيّكم بقول إنَّ الأمم السابقة لم تأمرها أنبياءها بالقتال.[١]

بل على العكس من ذلك، فإنَّ الأنبياء السابقين أيضاً فرض عليهم الجهاد، وكان في ركابهم رجال من رجال الله، وهؤلاء لم يبدو ضعفاً أو خوراً ولم يستسلموا للعدو، بل ما فتئوا يطلبون الرضا والمغفرة من الله تعالى، ويسألونه الصبر على الجلى وثبات القدم في ساحة الحرب نصرةً للحق ودحراً لأعداء الدين. وأما أنتم فقد غلوتم فيما فعلتم وفررتم من ساحة الوغى، ومع ذلك لا تريدون أن تجبروا أخطاءكم بالتوبة، وعقدتم الأيمان مع المنافقين بدل أن تطلبوا من الله ثبات القدم والنصر عليهم، وتركتم نبيّكم وحده.

وفي الختام يقرر الله تعالى عاقبة عمل «الربّيّن» فيقول: ﴿**فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَالله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**﴾[٢].

وفي بيان مقاصد هذه الآية، يجب أن يقال: الثواب أمر يفرح به الإنسان، ولكن شرط ثواب الدنيا أن يكون في مصلحة الفرد. وبناءاً على هذا فإنَّ المرء مهما فرح بمال الدنيا فإنه ليس في مصلحته على الإطلاق. وبناءاً عليه لا يمكن أن يقال في مؤمن لم يؤت حظاً وافراً من مال الدنيا إنه خلوّ من الانتفاع بثواب الدنيا.

وفي المقابل كلّ ما يعطيه الله تعالى في الآخرة للمرء، فإنّه جميل وحسن، وليس للشر سبيل إليه، كما أُشير إلى ذلك في آيات عدة تحدثت عن أوصاف النعم الأخروية،

---

١. تأثر المسلمون بإيحاءات المنافقين أنَّ الأنبياء عليهم السلام قبل النَّبي صلى الله عليه وآله لم يأمروا بالقتال، فراحوا يلومون النَّبي صلى الله عليه وآله ويتملصون من الجهاد.

٢. آل عمران (٣): ١٤٨.

ونحن نشير إلى نماذج منها في هذه الآيات:

﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.[١]

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.[٢]

﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٣]

وفي الختام كذلك يرى الله الجزاء الحسن من اختصاص المحسنين، ويخاطب المسلمين قائلاً: إن كنتم تريدون ثواب الدنيا والآخرة فعليكم أن تكونوا محسنين، وأن الله يحب إحسان المحسنين، وهذا الجزاء هو الإحسان.

الإنذار بعواقب الجنوح إلى المنافقين:

وفي مجرى الحديث الموصول بحرب أُحد في سورة آل عمران يعيد الله تعالى حديث الضرر المترتب على اللجوء إلى الكفار، وينبه المسلمين على خطورة ذلك، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.[٤]

ولكي نوضح معنى الآية لابدَّ لنا من الإلمام بمعنى الكفر، والتعرف على نوع

---

١. الزمر (٣٩): ٧٣.

٢. فاطر (٣٥): ٣٤.

٣. البقرة (٢): ٢٦٢.

٤. آل عمران (٣): ١٤٩ ـ ١٥٠.

الأعمال الّتي توجبه. والنكتة[١] المهمة الّتي ينبغي الإشارة إليها في بحث الكفر هي: أنَّ الإسلام أساساً لا ينافي الكفر الداخلي، إلا أنَّ محل الإيمان هو القلب، وهو والكفر لا يجتمعان فيه.

ومن الطبيعي أن الإنسان أحياناً قد يظهر الكفر للدفاع عن نفسه، ولكنَّ هذا ليس ذا أثر على إيمانه[٢] وربما كان عالماً بذلك عامداً.

كذلك عصيان أوامر الله وارتكاب المعاصي أيضاً، لا يؤثر على الإيمان شريطة أن لا يكون عن قصد وإنكار،[٣] والمرء الّذي يرتكب المعاصي يثبت عليه الإثم فقط، فإذا ما خُتم له بعدم التوبة فإنه يعاقب عقاب العصاة، ويسمى هنا فاسقاً.

فتبيّن من ذلك أنّ الفسق يجامع الإيمان، إذ أن الإيمان يكون ذا مراتب والفاسق حائز على مرتبة منها.

وبناءاً على هذا، فإنّ ما يوجب الكفر هو العمل الّذي يأتيه المرء عامداً متوجهاً على صورة الجحد والإنكار.

ونتيجة لما تقدم: فإنَّ المخاطب بالآية هم المؤمنون الذين يواطئون المنافقين على ما

---

١. النكتة: مسألة لطيفة أُخرجت بدقة نظر وإمعان، مِن نكتَ رمحه بالأرض إذا أثر فيها، وسُمّيت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها. (الجرجاني، **التعريفات**: ١/ ٢٤٦).

٢. يبيّن الله تعالى هذا الموضوع على النحو التالي: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (الحجرات (٤٩): ١٤).

٣. ويقول الله تعالى عن هذا الشأن: **﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (النحل (١٦): ١٠٦).

نووا مع التوجه والالتفات، ويتابعونهم. وطبقاً لمضمون الآية ١٤٤من سورة آل عمران[١] فإن عدداً من المسلمين الذين أسلموا في الظاهر أخذوا على أنفسهم عهداً بالعودة إلى الشرك القديم، وهؤلاء هم المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام والإيمان، ولكنَّ واقعهم يحكي عن الكفر، والله تعالى في هذا الجانب من الآيات يميط الستار عن حقيقة أخرى، وهي: أنَّ قوماً من المسلمين ضعيفي الإيمان عاهدوا الكافرين المنافقين بأن يعودوا إلى طاعتهم عند وفاة النَّبيﷺ أو قتله، ولذا خاطب الله هذا الفريق من المؤمنين فقال: إن أطعتم هؤلاء الكافرين فإنّهم سوف يردونكم إلى دينكم السابق (الشرك) وحينئذ تخسرون خسراناً عظيماً.

وبقليل من التأمل ندرك أنَّ المؤمنين في تلك الفترة من عصر الرسالة قد وقعوا بناءاً على ما تقصه هذه الآية تحت هيمنة واقع كان المسلمون في العام الثالث للهجرة قد تأثروا به. وبعبارة أخرى إنَّ الله تعالى يخاطبهم قائلاً: أنكم إن عدتم لشرككم السابق، فسوف يصيبكم الضرر العظيم.

ومن هنا يُعلم أنَّ المؤمنين لم يكونوا على علم بهذه القضيّة، ومن خلال ذلك ندرك أنَّ المنافقين كانوا قد أوحوا إلى هذه الفئة من المؤمنين ذوي الإيمان الرخو والإسلام الضعيف: أنكم إن عبدتم الله حتى وفاة النَّبيﷺ فإنَّ ذلك يكفيكم، وليس من موجب يقضي بقيامكم بذلك بعد وفاته، وتأثَر هذا الفريق من المؤمنين بأقوال المنافقين وعاهدوهم على اتّباعهم والاقتداء بهم.

---

١. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

ومن ثمَّ وجّه الباري الخطاب إلى المؤمنين فقال: يمحق الله الأعمال الّتي عملتموها قبل الارتداد، فلا تفيدكم بعده، ولا تثابون عليها، بل تذهب جميع هذه الأعمال سدى، وتخسرون خسراناً بيّناً.

ومما تقدم يمكن أن تُلتقط النتيجة على النحو التالي:

أنَّ المسلمين المخاطبين بهذه الآية هم فريقان، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة: الفريق الأول ـ وهم الأكثرية ـ المنافقون، والذين قطعوا على أنفسهم بالعودة إلى الشرك بعد وفاة النَّبيﷺ.

والفريق الثاني ـ وهم الأقليّة من المؤمنين ـ، الذين لم يقروا العودة إلى الشرك بعد الوفاة، ولكنهم وقعوا تحت هيمنة المنافقين، وهم التابعون للأكثرية من المنافقين.

والآن نعمد إلى بحث العلل والأسباب الّتي حدت بالمؤمنين أن يتّبعوا المنافقين، ولابدَّ من التوجه إلى هذه النكتة قبل الخوض في معرفة الأسباب، وهي: أنَّ المسلمين في المدينة يعرف بعضهم البعض الآخر معرفة جيّدة، وكلّ منهم مطلع على أحوال صاحبه بالحدّ الكافي، وكان التمييز بين المؤمن والمنافق يومئذٍ ممكناً، وعلى هذا الأساس عاهد المؤمنون المنافقين على الشرك والاتباع.

ومع فرض وضوح هذا الموضوع يمكن اصطياد النتيجة من خلاله هكذا:

أنَّ المؤمنين بضعفهم وقلّتهم استشعروا الخوف من المنافقين، لذلك عاهدوا المنافقين على الاتّباع، حيث أنَّ المنافقين كانوا يوحون للقوم أنَّ إدارة المجتمع بعد وفاة النَّبيﷺ سوف تكون في أيديهم، ولا حيلة للمسلمين إلا بأتباعهم والسير وراءهم، والآن عليكم أن تعاهدونا قبل فوات الأوان لكي تعيشوا معنا آمنين. ودار في خلد

المؤمنين أنّهم بعد وفاة النَّبيﷺ سيكونون الجانب الأضعف في المجتمع ولا حيلة لهم في الأمر، فلم يجدوا بداً من اتباع المنافقين.

ولكنّ الله تعالى قابل مثل هذه الأفكار بقوله: ليس كما يقولون من رجوع القيادة للمجتمع إليهم بعد وفاة النَّبيﷺ، ﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ﴾ والأمر إليه فلا تهنوا ولا تستشعروا الخوف من المنافقين، لأنَّ الله ناصركم عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

واعلموا أنَّ جميع هذه التفاسير من الممكن استنباطها من ظاهر القرآن؛ لوجود التناسب بين الحكم والموضوع دائماً.

وبعبارة أخرى: إنَّ من الأمور الّتي بواسطتها يُتعرف على نوع الحكم، ويتم كشفه، هي الآثار الّتي تظهر على الحكم[١]، وفي هذه الآية إن أردنا إيجاد التناسب الصحيح بين الحكم﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[٢] والموضوع ﴿إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٣] فإننا مضطرون للرجوع إلى الآيات السابقة، وكما قلنا سابقاً إنَّ الله تعالى بيّن التناسب قبل هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[٤].

وحينئذ يُستنبط من ظاهر كلام الله أنَّ عدداً كثيراً ممن ادّعى الإسلام ـ يعني الأكثرية المنافقة ـ قطعوا على أنفسهم العودة إلى دينهم السابق (الشرك) بعد وفاة رسول اللهﷺ وأخذوا قراراً باتباعهم حتماً، ولذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

---

١. لو أنَّ إنساناً نصح آخر فقال له: إن فعلت «عمل كذا» فسوف تستحق العذاب، فيظهر من هذا القول جلياً أنَّ الرجل يريد أن يقوم بعمل يغضب به الله أو يخالفه به، ولكن إذا قال له: إنّك إن فعلت كذا فإنك تكون مرتداً، فمعنى ذلك أنَّ هذا العمل يتم بالخروج عن الإسلام أو إنكار الإيمان.

٢. آل عمران (٣): ١٤٩.

٣. المصدر السابق.

٤. آل عمران (٣): ١٤٤.

إنكم إن اتبعتم المنافقين فسوف يردونكم إلى الشرك.

ومن قوله تعالى: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خائِبين﴾، يظهر مقدار تأثر القوم بالمنافقين بصورة جليّة، لاسيما بما أوحوه لهم من أنّ أعمالهم الّتي عملوها في حياة النّبيﷺ تكفيهم، فلا حاجة إلى المزيد. ويكشف عن وجه الواقع بدء الآية بحرف الاضراب «بل»، وقوله تعالى: ﴿اللهُ مَوْلاَكُمْ﴾[1] فإنه ظاهر في أنّ المسلمين اتخذوا المنافقين ـ وهم الأكثرية ـ قدوة، وسبب وذلك كما يكشفه ختام الآية: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[2] الخوف منهم، وأشار الله تعالى إلى الموضوع نفسه في آيات أخرى فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.[3]

إذ خاطب الله المؤمنين في هذه الآية فقال: إنَّ جماعة منكم الذين هربوا في حرب أُحد يوم التقى الجمعان، قد أزلهم الشيطان، ويريد بالشيطان المنافقين أنفسهم، لأنَّ المؤمنين هربوا بتسويل من المنافقين[4] ولأنَّ المؤمنين هربوا في الحرب بإيحاء من المنافقين، فإنَّ الله تقوية لهذا السبب الّذي أضلّهم عطفهم على أعمالهم السالفة وأمرهم بتدبرها، وذلك السبب هو العهد نفسه الّذي قطعوه على أنفسهم للمنافقين وواثقوهم عليه، حيث وعدوهم أن ينقلبوا على أعقابهم بعد وفاة النّبيﷺ.

وبناءاً على هذا فإن قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ إشارة إلى ذلك الميثاق الّذي واثقوا المنافقين عليه.

---

١. آل عمران (٣): ١٥٠.

٢. المصدر السابق.

٣. آل عمران (٣): ١٥٥.

٤. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ (البقرة (٢): ١٤).

وذلك أنَّ المسلمين إذا ما رأوا أنفسهم بعد وفاة نبيّهم وحدهم، وليس معهم النّبيﷺ، فإنّهم سوف يرجعون إلى دينهم الأول، حيث لا حيلة لهم إذا ما فقدوا القائد إلا الرجوع إلى قيادة الأكثرية من المنافقين.

ومن جهة أخرى فقد وقعوا تحت إيحاءات المنافقين، حيث صوروا لهم المشهد بغلبة رسول اللهﷺ وأنَّ المشركين هزموه، ومن ثمَّ عاهدوا المنافقين لكي يصونوا أنفسهم بعد موت النَّبيﷺ أو قتله مِن تعدي المنافقين عليهم واستئصالهم بصيرورتهم إليهم، وفرّوا في الحرب وتركوا النّبيﷺ وحده.[١]

وشاهد آخر فيه دلالة على المعنى الّذي ذهبنا إليه هو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ**﴾[٢] حيث المعني بقوله ﴿**مِنكُمْ**﴾ هم المؤمنون لا المنافقون، والضمير المجرور يرجع إلى «المؤمنون» وختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ**﴾[٣] لأنَّ المنافق لا إيمان له أصلاً لكي تصح منه التوبة بعد الذنب، وهدفه من البدء هو التخريب والخيانة، وهذه الحالة تختص بالمؤمن حيث يتعرض للندم وتأنيب الضمير بعد جرمه وسقوطه في مستحم الإثم فيتوب ويعفو الله عنه.

---

١. وبالطبع لجأ أهل السنة هنا إلى المغالطة وفسّروا قوله تعالى: ﴿**بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ**﴾ باتفاق طلحة والزبير مع اليهود، ويستندون في ذلك إلى الآيات من سورة المائدة (٥١ ـ ٥٢) لإثبات مدعاهم، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ ولكن وكما سلف بيانه قبلاً أنَّ هذه الآيات مرتبطة بالسنة التاسعة وأوائل السنة العاشرة، أي: في منصرم عمر النبيﷺ، وهدف أهل السنة من ذكر هذه المغالطة إقصاء الأذهان عن الحقيقة.

٢. آل عمران (٣): ١٥٥.

٣. المصدر السابق.

وبعد أن يؤنب الله المؤمنين على اتباعهم المنافقين، ويوقفهم على سوء عاقبة هذا الاتباع، وينفي ولاية المنافقين عنهم، ينسبها لنفسه، ويعلمهم بعدم حاجتهم إلى المنافقين بعد نصرة الله لهم. ومن أجل شد أزرهم في الآية التالية يخاطبهم، فيقول:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.[١]

وفيها يخاطب المؤمنين بقوله: مهما فعل المنافقون من التآمر على النّبيﷺ لينفضّ أصحابه عنه، ويلقوه في غياهب المشركين لكي يقضوا على الإسلام، فلا تلقوا إليهم بالاً، ولا تنصاعوا لإيحاءاتهم، فإننا سنلقي الرعب في قلوب المشركين لكي لا يخدعوا بعدّتهم وعتادهم، ويعلموا أنّها لا تحميهم من سلطان الله تعالى.

وبناءاً على هذا فلا سبب يدعوكم إلى الفرار، إذ يكفيكم أن تصمدوا قليلاً وتقاوموا لكي يلوذ المشركون بالفرار، لوجود الرعب داخل نفوسهم.

والنكتة الجديرة بالاهتمام جداً من هذا المقطع وتستفاد من الآيات، هي: أنّه خلافاً لما ورد في السيرة أنَّ مضمون هذه الآيات مطابق لما كان يخاطبهم به النّبيﷺ ويحذرهم منه قبل نشوب الحرب، أي: أنَّ هذه الآيات وإن كانت نازلة إبّان الحرب ولكنها تتحدث عن أحداث ما قبل الحرب.

وتوجد دلائل كثيرة في الآيات نفسها تثبت هذا المدّعى، منها هذه الآية نفسها، وفيها ﴿سَنُلْقِي﴾ والسين تستعمل للمستقبل القريب.

وتظهر النتيجة من هذا وذاك أن النّبيﷺ ألقى على المسلمين محتوى الآيات كلّها،

---

١. آل عمران (٣): ١٥١.

وأخبرهم بعلمه بما يبيّت له المشركون وتعاقدهم مع المسلمين، وكذلك حذّر المؤمنين من هذا الفعل ووعدهم بنصر الله لهم في هذا الأمر.

ومع ذلك، فإنَّ المؤمنين أغمضوا العين عن وعد الله لهم بالنصر، وتأثروا بإيحائات المنافقين وتسويلاتهم، وأصابهم الهلع من وعيد المشركين لهم ودسائسهم ومؤامراتهم، وخسروا الصفقة في الامتحان الإلهي، وبقيت رؤوسهم منكسة.

إيمان المسلمين في السنين الأخيرة من عمر النَّبي ﷺ:

لكي لا يقول قائل: إنَّ الوضع القلق وغير المستقر لإيمان المسلمين إنما هو للظروف الطارئة في حرب أُحد، ثم تاب المسلمون بعد ذلك وقوي إيمانهم واستحكم، فإنَّ الله تعالى في موقع آخر وفي أواخر العام التاسع وأوائل العام العاشر أي: قبل وفاة النَّبيﷺ بأشهر قد بيّن أحوال القوم من ناحية الإيمان، لكي لايُستبعد ارتدادهم بعد انتقال النّبيﷺ إلى الرفيق الأعلى، فرسمَ صورة لواقع المسلمين في سورة المائدة على النحو التالي: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَخْشَوْهُمْ**﴾ ـ أي: المؤمنون المستضعفون، فإنهم في العام التاسع الهجري سلموا للمنافقين قيادهم خوفاً منهم، لذلك خاطبهم الله سبحانه بهذا الخطاب، وبيّن لهم أنَّ فيكم ولياً لله كأميرالمؤمنينؑ فلا تخشوا الكافرين ـ المنافقين ـ وقد يئسوا من دينكم مع وجوده، وهذا الأمر حباء من الله لكم؛ لأنَّ الله أكمل الدين به وبوجوده، ولكن الموعظة هذه لم تجدهم نفعاً ولذلك خاطب الله نبيّهﷺ فقال:

﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ**

---

١. المائدة (٥): ٣.

آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.[١]

وبهذا الأسلوب يعمد إلى عزاء نبيه وتسلية خاطره، فيقول له: يا أيها الرسول لا تحزن من مسارعة قوم إلى الكفر، فأولئك الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

وبعد هذه الآية يواصل كشف حالهم في عدد من الآيات، ويرفع الستار عنهم، لتبدو حقيقتهم ظاهرة للعيان، بعد أن يبالغ في إنذارهم ونصحهم، حيث يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[٢]

ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى الله أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.[٣]

ويقول في آية تالية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ

---

١. المائدة (٥): ٤١ .

٢. المائدة (٥): ٥١. مجرد الصداقة لليهود والنصارى لا تحمل المرء على الانتماء إليهم، والدخول في دينهم، بل قبول الولاية منهم هي الّتي تحمل على هذا المعنى، وكان المسلمون يرون هذا الرأي، أي: قبول ولايتهم.

٣. المائدة (٥): ٥٢.

لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴾.[١]

والتاريخ يشهد بتحقيق أمر الله تعالى، وصبر أميرالمؤمنين عليه السلام على مضض من أجل حفظ اسم الإسلام بأمر الله، ولم يتسنَ لأبي بكر وعمر الإعلان عن نفاقهما واجتهدا بقدر وسعهما لإخفاء آثار نفاقهما، لأنهما لو بدّلا هذه الروية لقال الناس عنهما هؤلاء هم القوم الذين كانوا يقسمون بجد ويظهرون الإيمان، والآن أصبح نفاقهم ظاهراً مشهوراً على نحو العلن، أي: أنّهم بمشيئة الله آيسوا من إظهار الكفر ومحو الإسلام، وصارت أعمالهم هباءاً منثوراً من أجل نفاقهم، وخسروا خسراناً مبيناً.

وفي آية تالية أخبر الله بصراحةٍ من القول عن ارتداد المسلمين، وأظهر الغنى عنهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[٢]

ثم يستمر الله تعالى في إتمام الحجة على المسلمين فيقول:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ

---

١. المائدة (٥): ٥٣ .

٢. المائدة (٥): ٥٤.

دِينكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[١]

فانظروا جيّداً: إنَّ الله تعالى يخبر عن مؤامرات المنافقين لغصب الخلافة، وينهاهم عن الخضوع لهم، والانصياع لأوامرهم ومنويّاتهم، ويأمرهم أن يتخذوا الله ورسولهﷺ وأميرالمؤمنين‌عليه السلام أولياء، فإن كنتم مؤمنين فاخشوا الله تعالى ولا تقبلوا ولاية من أبعده الله تعالى.

ومن هذا يظهر أنَّ الآيات متصل بعضها ببعض وآخذ بعضها برقاب بعض، فكل آية تدل على آية وتؤكدها، كآيات سورة آل عمران، حيث كشفت عن ضعف إيمان المسلمين في السنة الثالثة من الهجرة وتؤكد ذلك المعنى آيات من سورة المائدة في السنة التاسعة من الهجرة، وتظهر الوضع السائد يومئذٍ لإيمان المسلمين بشكل آخر.

---

١. المائدة (٥): ٥٥ ـ ٥٧.

القسم الثاني: زعماء النفاق

قلنا فيما سبق، لما كان زمام المبادرة في يد أميرالمؤمنين عليه السلام عند بدء الحرب لم يكن للمنافقين مجال لإجراء المرحلة الثانية من خطّتهم، وذلك بفرارهم من ساحة الوغى وترك النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده بين الأعداء. ولكنهم كانوا يتحيّنون الفرصة لنقل الخطوة الثانية لخطتهم، وتمكنوا منها على يد خالد بن الوليد، وبينما فرَّ المنافقون لا يلوون على شيء، وإذا بصيحة تصكّ الاسماع وتخلع القلب «ألا أنَّ محمداً قد قتل» فأوجبت فرار الآخرين الذين ثبتوا في مواضعهم، وتركوا النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم مفرداً بين الأعداء محاطاً بهم ومحاصراً بسيوفهم، وسولت لهم أنفسهم أنه إما أن يقتل وإما أن يؤسر بأيدي المشركين أو يفرّ إلى جهة بعيدة بحيث ينقطع عليه الرجوع إلى المدينة، وكانوا في غفلة عن أنَّ الله ينصر أنبياءه من حيث لا يشعر أحد، ولكنه أمدّ نبيّه الخاتم علناً بعلي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي هذه الآيات التالية أبان الله تعالى حال المنافقين في أُحد على الوضع الّذي كشفته الآيات هذه:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ الله وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ

﴿قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[١]

فيقول الله تعالى في هذه الآيات: «إن ما جرى يوم الجمع بين المسلمين والمشركين ـ أي: يوم أُحد ـ وما أصابكم لم يكن ليرضيكم، إنما كان بتدبير من الله تعالى لكي يميز بين المسلمين والمنافقين»، ثم يرجع سبحانه بآياته قليلاً إلى الوراء، ويشير إلى مشهد جرى من المنافقين ويقول: واستدعي المنافقون إلى الجهاد في سبيل الله، فإن لم تقاتلوا في سبيل الله فاحموا أنفسكم على أقل تقدير، فقال المنافقون: لو كنا نعلم بوقوع الحرب لاتبعناكم، أي: أنهم يزعمون أن هذه الحرب لم تكن سوى مكيدة عاقبتها الفرار والهزيمة. وهم بهذا القول للكفر أقرب منهم إلى الإيمان، ولم يظهر المنافقون ما في قلوبهم ويقولوا بألسنتهم «نحن منكم»، ولكنَّ الله يعلم بما أسرّوا في قلوبهم، وهو أعلم به منهم. ثم يواصل الله تعالى آياته لكشف حقيقة المنافقين أكثر فأكثر، فأوضح أنهم قوم قالوا لإخوانهم الذين هم وإياهم من قبيلة واحدة، وقعدوا عن الحرب متفرجين على ما يدور فيها: قلنا لهم إنها حرب صورية، وتقتلون أنفسكم بدون موجب يدعوكم لذلك، ولو أطاعونا لما قتلوا، ويقول الله تعالى لنبيّه: قل لهم إن كنتم صادقين فاعفوا عن أنفسكم الموت، وليس لكم على هؤلاء سبيل، ولا أنتم معنيّون بهم أصابوا في قتلهم أم أخطأوا، ربحوا أم خسروا.

والعجيب أنَّ كتب السيرة والتفسير تحصر نزول الآيات الشريفة في عبدالله بن أبي، والذين فارقوا النَّبيﷺ في وسط الطريق، ولكنَّ عدداً من النكات في هذا المورد تقتضي من الإنسان التأمل.

---

١. آل عمران (٣): ١٦٦ـ١٦٨.

أولاً: إنّ الله تعالى يقول في تعريف هؤلاء المنافقين:

﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

أي: أنّ هؤلاء المنافقين هم الذين قالوا لإخوانهم وأهل قبيلتهم وقعدوا يتفرجون على المعركة: إنهم لو أطاعونا لما قتلوا. وكلمة «قعدوا» ليس معناها «رجعوا» حتى تكون ناظرة إلى عبدالله بن أبي، وعبدالله بن أبي وإن كان منافقاً في المنافقين، إلا أنَّ المنافقين الذين وضعوا تصاميم المؤامرة في حرب أُحد وأداروا عجلتها هم أولئك الذين كانوا حاضري المعركة، وقعدوا في مكان واحد، وكانوا يحملون الناس على ترك الحرب باعتبارها حرباً ظاهرية صورية، وليست جهاداً، وراحوا يخذّلون الناس عنها، ثم أشاعوا بين الناس أسطورة شهادة النَّبيﷺ، وبهذا أوجدوا المناخ الأول لهزيمة المسلمين.

وثانياً: يظهر من فحوى الكلام، ومن الجزء المشع من الآية **﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾** بوضوح أنَّ هذه الآيات تختص بالزمن الّذي بدأ فيه أُوار الحرب بالاشتعال، وليس لها أية صلة بما قبل الحرب، وجملة: **﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾** إنّما هي قول قوم أرادوا ردع المسلمين عن الاشتباك مع المشركين، لينفرد النَّبيﷺ بين المشركين ويحاصروه.

والشاهد على هذا القول الحكاية الّتي رواها ابن اسحاق، يقول:

«انتهى أنس بن النضر[1] عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب

---

١. أنس بن النضر هو: عم أنس بن مالك، الّذي قتل في حرب أُحد، وسمي أنس بن مالك عند ولادته باسمه. (راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٨٨).

وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده، [قوموا] فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل وبه سُمّي أنس بن مالك».[١]

والحديث الآخر الّذي يرفع الستار عن جانب من وقائع الحرب هو رواية الطبري الّذي يقول: تحول رسول الله مع القوم الذين يقاتلون معه من ساحة القتال إلى هضبة قريبة منه، والمسلمون يفرون على وجوههم لا يدرون إلى أين هم سائرون، وإذا برجل يعترض طريقهم ويسألهم: أين خلّفتم رسول الله؟ فيجيبونه بأجمعهم، لا ندري ما الّذي حلّ به، فيقول ذلك الرجل: إنْ قُتِلَ رسول الله فإننا نعود لقومنا، ونصافحهم بالسلم والمحبة.[٢]

وأنت إذا ما رجعت إلى كتب السيرة متَفحصاً عن حقيقة هذا الرجل، فإنهم سيقولون لك: لعن الله المنافقين، ولكن إذا دققت في جملة «إنهم لعشائرنا وإخواننا» فسوف تعلم أنَّ ذلك الشخص لابد أن يكون من المهاجرين.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى آيات النفاق، فنجري تحقيقاً آخر لها.

﴿وَقيلَ لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين **﴿تَعالَوْا قاتِلُوا في سَبيلِ الله أَوِ ادْفَعُوا﴾** فإن لم تقاتلوا فادفعوا عن أنفسكم على أقلّ تقدير **﴿قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُم﴾** يقول المنافقون:

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٨٨؛ وانظر: البخاري، الصحيح: ٤/ ١٩.

٢. الطبري، جامع البيان: ٧/ ٢٥٧ والحديث مترجم.

لو كنّا نعلم أنَّ قتالاً سوف يحدث، فإننا نتبعكم.

وينبغي أن يلتفت إلى هذه النكتة، وهي: أنَّ المنافقين لم يكونوا يعلمون الغيب، فإنَّ هذا القول السابق للحدث يشعر بوجود مؤامرة وضعت خطوطها بالتعاون مع المشركين، وهؤلاء أخذوا على أنفسهم إشاعة قتل النّبيﷺ عند ما تحين الفرصة المناسبة، لكي يهيئوا المناخ لهرب المسلمين، ويحاصره المشركون ويقضوا عليه. ولذلك عند ما يطلب منهم القتال تراهم يتحدثون عن عاقبة الحرب، ويقولون: «لو كنا نعلم قتالاً لاتبعناكم»، وتجري هذه العبارات على أنفسهم، ولم يتقيدوا بمضمونها، وليس سوى الكذب الّذي اتخذوه شعاراً لهم. ومن ثمَّ يكشف الله عن واقعهم، فيقول:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.[1]

ويعود الله تعالى مرّة أخرى، فيرفع الستار عن وجوههم الحقيقية، فيقول: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ﴾[2] أي: الذين ينتمون معهم إلى قبيلة واحدة، لا مجرّد أخوّة دينية، ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي: لم يباشروا القتال، بل جلسوا متفرجين، و﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ حين أخبرناهم أنَّ هذه الحرب ما هي إلا حرب شكلية فلا تقاتلوا عبثاً ﴿مَا قُتِلُوا﴾.

والآن نعيد السؤال مرة ثانية: مَن هم المنافقون الذين كانوا في حرب أُحد مع المجاهدين؟ ومَن هؤلاء الذين حاكوا المؤامرة على النّبيﷺ؟ وينبغي أن يوجد جواب هذا السؤال عند أول الفارّين من المعركة الذين تركوا ساحة القتال وهربوا.

---

١. آل عمران (٣): ١٦٧.

٢. آل عمران (٣): ١٦٨.

الهاربون من الحرب:

يلزمنا ذكر عدد من النكات قبل الإشارة إلى اسماء الفارين من جبهة القتال في أُحد.

النكتة الأولى: أن الله تعالى يقول في حق الذين هربوا يوم أُحد: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ**﴾[١] أي: عند ما تصعدون على الجبل ﴿**وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾[٢] بينما النّبيﷺ يناديكم من ورائكم، فلا تلقوا إليه بالاً.

و «صعد» يتعدّى بنفسه فتقول «صعدت الجبال» وأما «تصعدون» المتعدي من باب «إفعال» فإنه يدل على المشقّة في الصعود وعلى التكلف أيضاً. ومعنى هذه العبارة: أنّ الذين تكلفوا الصعود إلى الجبل كانوا يعانون الارتفاع إلى قمته، ويبالغون في الاعتلاء إليها مع كونهم لم يضطروا إلى ذلك، وليس بهم من حاجة إلى فعل ذلك، بل كان ذلك منهم تنفيذاً للخطة الّتي وضعوا خطوطها بأنفسهم، وكانوا ملجئين على فعل ذلك، وكان النّبيﷺ يدعوهم من ورائهم ولكنهم لايجيبونه.

وهذا يُظهِر أنَّ النَّبيﷺ لم يترك ساحة الحرب، بل بقي مرابطاً في المعترك، بخلاف ما ذكر في كتب السيرة.

وأما المؤرخون وكتّاب السيرة، فإنهم نسبوا اللجوء إلى الجبل للنَّبيﷺ ليستروا قبح الفارّين ويغطّوا عوراتهم حين هربوا في وجه العدو، وصعدوا لحمى الجبل، كأنهم الماعز الفارّة.

---

١. آل عمران (٣): ١٥٣.

٢. المصدر السابق.

النكتة الثانية: إنَّ بعض القوم الذين يحرجهم أن يُمسّ صحابة النّبيﷺ ولو بالغبار يركد على وجناتهم، لا يرون الركون إلى الجبل والصعود عليه فراراً. وجوابنا لهؤلاء الجماعة: أنّه لو أمر النَّبيﷺ بترك القتال لكان قولكم صواباً، وأما وهو ما يزال يقاوم العدو في وسط المعمة ولم يُنه الحرب، وبناءاً على ما تقوله الآيات، لا أنّه لم يُنه الحرب بل كان يناديهم بالعودة واستئناف القتال، وهم لا يلقون إليه بالاً، ولا يعبأون بندائه، فما اسم هذا العمل منهم إن لم يكن فراراً وهزيمة؟

النكتة الثالثة: إنَّ بعض الجماعة بالاستناد إلى الآية الكريمة ﴿**وَلَقَدْ عَفَا الله عَنهُمْ**﴾ قالوا: إنه حكم بالعفو صادر في حق الجميع دونما يدققوا في سابق الآية ولاحقها، إذ تقول الآية الشريفة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾[١] وتتصل هذه الآية بفريقين من المسلمين ذكرهما الله تعالى في الآية ١٢٢ من سورة آل عمران ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ**﴾.

وهذان الفريقان هما طائفة بني سلمة والأخرى طائفة بني حارثة ـ وكلا الطائفتين من قبائل الأنصار ـ وقد تأثرا بكلام المنافقين فخافا وهمّا بترك القتال والنَّبيﷺ يسوّي الصفوف، والله تعالى عفا عنهما في هذه الآية، ولا ربط لهذا بهرب ﴿**يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾ فإنَّ هذا الفرار قد حدث عند ما التقى الجمعان ونزل النصر الإلهي على يد أميرالمؤمنينعليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ**

---

١. آل عمران (٣): ١٥٥.

﴿مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[١] ويقول بعد ذلك: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾[٢]؛ وبناءاً على هذا، فإنَّ الفرار حدث بعد التقاء الجمعين، وليست الآية مرتبطة بسورة آل عمران في الذين فرّوا يوم همّت الطائفتان فإنّ الله عفى عنهم.

هرب أبي بكر[٣]

روت عائشة، فقالت: «إنَّ أبي يستغرق في البكاء كلما ذكر يوم أُحد، ويقول: كانت أُحد يوم طلحة، ويقول: لما هرب الناس كنت أول من آب إلى رسول الله ﷺ ورأيت رجلاً يقاتل إلى جانب رسول الله ﷺ فقلت في نفسي: اللهمّ إن كان هذا الشرف قد فاتني فاجعله طلحة ليكون هذا الشرف لرجل من قومي».[٤]

ونقل ابن أبي الحديد عن أستاذه الإسكافي، في جوابه للجاحظ:

«أما ثباته يوم أُحد فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه».[٥]

---

١. آل عمران (٣): ١٥٢.

٢. آل عمران (٣): ١٥٣.

٣. إن العلامة الجعفري (نوّر الله مرقده) اقتصر على الشواهد الحاكية عن فرار عمر وعثمان، وهذا المقطع ذكره المقرر لإكمال البحث الخاص بذلك.

٤. راجع: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ١٦٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**: ٣/ ٥٨؛ **البداية والنهاية**: ٤/ ٢٩؛ وكذلك نقل الحاكم نظير هذه الرواية في المستدرك بفارق بسيط فإنه ذكر أباعبيدة مكان طلحة. (راجع: الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٣/ ٢٩).

٥. ابن ابي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ١٣/ ٢٩٣.

فرار عمر:

«انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده، [قوموا] فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل».[1]

عن كليب قال:

«خطبنا عمر فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول: إنها أُحديه، ثم قال: تفرَّقنا عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يوم أُحد فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول: «قتل محمد»، فقلت: لا سمع أحداً يقول «قتل محمد» إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم والناس يتراجعون إليه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾»[2].[3]

وجاء في تفسير الطبري قوله:

«خطب عمر يوم الجمعة فقرأ آل عمران، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها[4] فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٨٨.

٢. آل عمران (٣): ١٤٤.

٣. السيوطي، الدر المنثور: ٢/ ٣٣٤.

٤. يقرؤها في خطبته لإيجاد تفسير جديد لها يخرجه من حرجه، ويبقى شينه وأمثاله من الفرار مطموراً.

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١] قال: لما كان يوم أُحد هزمناهم، ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى والناس يقولون «قتل محمد»، فقلت: لا أجد أحداً يقول: «قتل محمد» إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الآية كلها.[٢]

ولا يدرى ما الّذي حمل الطبري على ذكر هذه الفضائح، وما الّذي يتوخّاه من الفائدة؟ التفتوا جيداً أنَّ عمر يزعم في أول الكلام أنهم هزموا المشركين «هزمناهم» ويقول أيضاً وهو يسند البطولة إلى نفسه وأصحابه، «وفررت» ثم يواصل الحديث ليكون له فخر أول فار من ميدان القتال، فيقول: رأيتني أنزو على الجبل كأنني أروى. والملفت للنظر أنه يقول أولاً: فررت إلى أعلى الجبل، ثم يقول: سمعت الناس يقولون «قتل محمدﷺ» فقلت: لأقتلنّ من قال ذلك، ولايدرى من هو مخاطب عمر في أعلى الجبل؟! كأنَّ جماعة يقولون: «قتل محمد»، وعمر يهددهم في أعلى الجبل؟؟!! أي: أنّه يقول أنا أول الفارين من القتال، وأول من سمع قول المشركين في وسط المعركة ورددت عليه، ونترك تفسير الرواية وحلّ رموزها الغريبة إلى القارئ.

فرار عثمان:

وأما فرار عثمان فهو مورد إجماع المسلمين والمؤرخين، وعاد إلى المدينة بعد ثلاثة أيام،

---

١. آل عمران (٣): ١٥٥.

٢. الطبري، جامع البيان: ٧/ ٣٢٧؛ السيوطي، الدر المنثور: ٢/ ٣٥٥.

حتى قال له النَّبيﷺ «ذهبت بها عريضة»[١].

دراسة متن ابن أبي الحديد:

يقول ابن أبي الحديد في هذا الشأن:

«قد أُختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا؟ مع اتفاق الرواة كافة على أنّ عثمان لم يثبت، فالواقدي ذكر أنه لم يثبت، وأما محمد بن إسحاق والبلاذري فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ، واتفقوا كلهم على أنَّ ضرار بن الخطاب الفهري قرع رأسه بالرمح، وقال: إنها نعمة مشكورة يابن الخطاب، إني آليت ألا أقتل رجلاً من قريش. وروى ذلك محمد بن إسحاق وغيره ولم يختلفوا في ذلك، وإنما اختلفوا هل قرعه بالرمح وهو فار هارب أم مقدم ثابت؟ والذين رووا أنّه قرعه بالرمح ـ وهو هارب ـ لم يقل أحد منهم أنه هرب حين هرب عثمان، ولا إلى الجهة الّتي فرّ إليها عثمان، وإنما هرب معتصماً بالجبل، وهذا ليس بعيب ولا ذنب، لأنَّ الذين ثبتوا مع رسول اللهﷺ اعتصموا بالجبل كلهم وأصعدوا فيه. ولكن يبقى الفرق بين من أصعد في الجبل في آخر الأمر ومن أصعد فيه والحرب لم تضع أوزارها، فإن كان عمر أصعد فيه آخر الأمر فكل المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول اللهﷺ، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد، تفرق».

---

١. راجع: الطبري، جامع البيان: ٧/ ٣٢٩؛ ابن إسحاق، السيرة النبوية: ١/ ٣٣٢.

ثم يواصل الحديث عن هرب أبي بكر، فيقول:

«ولم يختلف الرواة من أهل الحديث في أنَّ أبابكر لم يفرّ يومئذٍ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قَتْل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحده كفاية».

ثم يُفيض في ذكر عقيدة الشيعة فيقول:

«وأما رواة الشيعة فإنهم يرون أنه لم يثبت إلا علي وطلحة والزبير وأبودجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت، ومنهم من روى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يعدون أبابكر وعمر منهم».

ويقول عن هرب عثمان:

«روى كثير من أصحاب الحديث أنّ عثمان جاء بعد ثالثة إلى رسول الله ﷺ فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرض، فقال: لقد ذهبت فيها عريضة».[1]

وكلام ابن أبي الحديد من عدة جهات يحمل على التأمل:

أما عن ضرب ضرار بن الخطاب رأس عمر بزجّ الرمح ولم يقتله، فإنَّ سبب ذلك كون عمر لا يورد أيَّ ضرر على أهداف المشركين، ولو عرف عنه الضرر لما تردد في قتله لحظة واحدة.

وأما قوله: أنَّ من نسب الفرار إلى عمر لم يجعله كفرار عثمان، وإنَّ عمر لجأ إلى

---

١. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ١٥/ ٢٠ ـ ٢١.

الجبل، فهذا هو اعتقاد الشيعة، ولا يرون فيه أكثر من ذلك. ولكن الثابت أنَّ جبل أُحد لم يكن ساحة القتال، بل ساحة القتال كانت هي الأرض المستوية الّتي تقابل الجبل. والشاهد على ذلك دفن الشهداء فيها، فقد دفنوا في الأرض الّتي استشهدوا عليها، وتوجد قبورهم اليوم هناك، وبينها وبين أُحد تفصل مسافة ملحوظة.

وبناءاً على هذا، فإنَّ ترك ميدان القتال يعتبر فراراً، وإن كان إلى جانب الجبل، ولم يذهب بعيداً كعثمان.

وأما ما يقوله: من أنَّ اللجوء إلى الجبل لا يعدّ عيباً، لأنَّ جميعهم لجأوا إليه حتى النّبيﷺ نفسه، فهو كذب محض، يرده القرآن حين يقول:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.[1]

وأما حديثه عن أبي بكر، فهو مضحك جداً، ومن باب اللهو والسخرية، لأنَّ الثبوت إنما يجدي نفعاً إذا كان صاحبه مقاتلاً، وأما إذا اعتزل القتال وأغمد سيفه أو لم يكن معه سيف فإنَّ أحداً لن يقصده بالقتل قطعاً حتى يلوذ بالفرار، ولو فرضنا أنّه كان يقاتل فلابدَّ من نقل ذلك عنه على أقلّ تقدير، أو نقل هربه وفراره. ولو صحّ ثبوته وعدم هربه، فلابدَّ أن يكون لسبب أمن المشركين منه أو اطمئنانه على نفسه من قبل المشركين وأنّهم لن يقصدوه بأذى.

وأما ما يقوله: من أنَّ الشيعة يرون بأنَّ علياً وطلحة والزبير وغيرهم قليل ثبتوا

---

١. آل عمران (٣): ١٥٣.

وهرب الباقون، فإننا نقول: لم يثبت غير علي، وهرب الباقون، وأما من ذكر اسماءهم ممن زعم لهم الثبات فإنّهم مصداق هذه الآية ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[1] فقد استولى عليهم النوم، وهم أنفسهم يعترفون بأنَّ الله ألقى عليهم النعاس لكي يحفظهم ويكون النوم لهم آمنة حتى سلبهم النعاس قوتهم، فما كانت فيهم القدرة على رفع سيوفهم.

ذكرى من ابن أبي الحديد:

قال ابن أبي الحديد:

«حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي، الفقيه على رأي الشيعة الإمامية، في داره بدرب الدواب ببغداد في سنة ثمان وستمائة وقارئ يقرأ عنده مغازي الواقدي [قال: حدثني ابن أبي سبرة، عن خالد بن رياح، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد، قال:] سمعت محمد بن مسلمة يقول: سمعت أُذناي وأبصرت عيناي رسول الله يقول يوم أُحد، وقد انكشف الناس إلى الجبل، وهو يدعوهم وهم لا يلوون عليه، سمعته يقول: إليّ يا فلان إليّ يا فلان أنا رسول الله، فما عرج عليه واحد منهما ومضيا. فأشار ابن معد إليّ أن اسمع، فقلت: وما في هذا؟ قال: هذه كناية عنهما، فقلت: ويجوز ألا يكون عنهما، لعلّه عن غيرهما. قال: ليس في الصحابة من يُحتشم ويُستحيى من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب، فيضطر القائل إلى الكناية إلا هما، قلت: له هذا وَهْم، فقال: دعنا من جدلك ومنعك.

---

١. آل عمران (٣): ١٥٤.

ثم حلف أنّه ما عنى الواقدي غيرهما، وأنّه لو كان غيرهما لذكره صريحاً، وبان في وجهه التنكر من مخالفتي له».[١]

والتثنية في الأدب العربي لا تُأول، وقد جاء شواهد على ذلك في القرآن المجيد كثيرة، وقد حملت التثنية على ذينك الاثنين. فمثلاً يقول الله تعالى في سورة التحريم:

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[٢]

ويعبّر في رواياتنا أحياناً عن الاثنين بألف التثنية، حيث جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام:

«إنَّ ثلاث طوائف يحرمون يوم القيامة من النظر إلى رحمة الله، طائفة من هؤلاء: من يظنون أن هؤلاء الاثنين لهم نصيب في الإسلام».[٣]

---

١. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ١٥/ ٢٣ ـ ٢٤.

٢. التحريم (٦٦):٤؛ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ نزلت في عائشة وحفصة. (راجع: فرات بن إبراهيم، **التفسير**: ١٨٦).

٣. الكليني، **الكافي**: ١/ ٣٧٣.

القسم الثالث:مصير المنافقين بعد حرب أحد

تُروى آيات ثلاث في حق المنافقين في حرب أُحد:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾.[1]

فقد ذُكِر في حديث عن زيد بن ثابت أنَّ ثلاث آيات من سورة النساء المباركة مختصة بعبدالله بن أبي في حرب أُحد. وهذا الحديث له اعتباره الخاص عند غير الإمامية.

---

١. النساء (٤): ٨٨ـ٩٠.

وروى البخاري عن زيد بن ثابت:

«لما خرج النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى أُحد رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم. وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[١] وقال النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: إنها تنفي الرجال كما تنفى النار خبث الحديد».[٢]

ويقول الله تعالى في هذه الآيات الثلاث: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: ليس معكم فريقان من المنافقين لتقاتلوا فريقاً وتداروا فريقاً آخر: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: قد أغرقهم الله حتى هاماتهم في الضلال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾ فإنَّ هؤلاء وإن كانوا منافقين ولكنهم في الباطن كافرون، ويحبّون أن تكونوا كافرين مثلهم، ليكون ظاهركم الكفر وباطنكم الكفر، لئلاّ يجبروا على إدّعاء الإسلام: ﴿فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فإن دماءهم محرمة، ولهم مثل ما لأهل ميثاقكم من الأمان، ﴿أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أو أنهم لجأوا إليكم وقد ضاقت صدورهم بالحرب، فلا يريدون حربكم ولا حرب غيركم، وبناءاً على هذا فلا تضايقوهم وكفّوا عن قتلهم وإيذائهم ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾.

---

١. النساء (٤): ٨٨.

٢. البخاري، الصحيح: ٣/ ٢٢.

كذب زيد بن ثابت:

يقول زيد بن ثابت: نزلت هذه الآيات بحق قوم تخلّفوا عن حرب أُحد، وكانوا يقولون: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾[1]، فاختلف الأصحاب فيهم فقال قوم: نقتلهم، وقال آخرون: بل نُبقي عليهم. وجاء حديث زيد في مجاميع كثيرة غير شيعية باختلاف يسير، ونحن نسوق المتن الّذي ذكره البخاري في صحيحه ليطلع عليه القرّاء:

«لما خرج النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى أُحد رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النَّبي صلى الله عليه [وآله] وسلم فرقتين: فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة».[2]

وهؤلاء الذين رجعوا هم: عبدالله بن أبي وأتباعه.

وهذا الإدّعاء من كون نزول الآيات في عبدالله بن أبي وأصحابه الخارجين معه يمكن أن يقيم الأدلة على كذب ذلك:

الدليل الأول: تناقص مدلول حديث زيد مع منطوق الآية الشريفة، فقد جاء في حديث زيد أنَّ أصحاب النّبيﷺ افترقوا فرقتين، فرقة تقول نقتلهم والأخرى تدرء عنهم القتل. ولكنَّ الآية لم تكن أصلاً بصدد بيان مَن منهما يقول الحق ومن منهما الخاطئ.

---

١. آل عمران (٣): ١٦٧.

٢. البخاري، **الصحيح**: ٥/ ٩٦؛ وراجع: نفس المصدر: ٦/ ٤٧؛ مسلم، **الصحيح**: ٤/ ١٢١.

ومن أجل إيضاح ذلك نسوق مثالين بسيطين:

المثال الأول: لنفترض أنّ قائلاً نطق بقول بين يدي قاضيين عادلين، فاختلفا هل أن قوله هذا موجب لارتداده أم لا؟! فقال الأول: أجل موجب لارتداده، وقال الثاني: لا يوجب الارتداد. عندئذ تتألف هيئة محكّمة من قضاة لهم تجارب ثابتة في القضاء، وتحكم برأي أحدهما وتذيعه بين الناس.

المثال الثاني: لنفترض أنَّ القائلين قالا قولاً واحداً، فحكم القاضي على أحدهما بالارتداد وعلى الآخر بعدمه.

والآية الشريفة تنحو منحى المثال الثاني، وحديث زيد ينحو منحى المثال الأول.

فإنَّ الآية الشريفة ليست بصدد ترجيح أحد القولين على الآخر وتصحيحه، بل الله تعالى يبين أساساً مطلباً غير ما يقوله زيد بن ثابت، ويرد افتراق المنافقين إلى فرقتين، ويقول ليسوا كذلك.

الدليل الثاني: يقول زيد بن الثابت إنَّ هذه الآيات نزلت في عبدالله بن أبي وأصحابه الذين انفصلوا عن النّبيﷺ في أثناء الطريق، وعادوا إلى المدينة، ونحن نعلم أنَّ عبدالله بن أبي ورفقاؤه هم من أهل المدينة، بينما الآية تختص بالمهاجرين، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ﴾[1] فهم إذن ليسوا من الأنصار بل من المهاجرين.

الدليل الثالث: نسب زيد بن ثابت إلى النّبيﷺ قوله عن المدينة: إنّها طاهرة، وهي كالأتون الّذي يخلص اللجن من خبثه، وأنها لا تدّخر في حماها قوماً خبثاء. فلو كان ما

---

١. النساء (٤): ٨٩.

قاله زيد حقاً، فلماذا بقي المنافقون في داخلها حياة النَّبيﷺ كلها، حتى بلغ الرمق الأخير، من السنة الثالثة للهجرة حتى السنة التاسعة موعد نزول سورة التوبة، وبعد ذلك في حجة الوداع عند نزول سورة المائدة؟ فلماذا لم تتخلص المدينة من خبث المنافقين هذه المدّة، ولم تنق ذاتها؟!

ولماذا ما فتئ الباري سبحانه يورد للمنافقين ذكراً في آياته؟ وحينئذ ينبغي أن يُعتبر حديث زيد من الأحاديث الموضوعة الّتي لا أصل لها!!

أو أن نقول إن النَّبيﷺ سبب من أسباب وجود النفاق ـ نعوذ بالله من ذلك ـ بحيث يقتلع جذره عند موتهﷺ، كما أشار إلى ذلك الفخر الرازي، فى ذيل تفسير هذه الآيات.

المنافقون هم من المهاجرين[1]!

لقد أوّلَ أهل السنة الآية ـ بناءاً على حديث زيد بن ثابت ـ في عبدالله بن أبي وأصحابه، الذين رجعوا عن النَّبيﷺ أثناء الطريق. ولكن مع بذل الدقة في فهم الآية يُعلم جيداً أنها في المهاجرين المنافقين، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[2] أي:

---

١. من الآيات الدالة على وجود النفاق بين المهاجرين: الآية ٧٤ من سورة التوبة المباركة، لأنّ في هذه الآية يشير إلى أنهم لم يكونوا من الأنصار ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إذ لم ينل الأنصار من الإسلام نفعاً مادّياً، بل على العكس من ذلك نالوا ضرراً كثيراً، وهؤلاء الذين نالوا الغنى هم القوم الذين هاجروا إلى المدينة، وأمنّوا على حياتهم إلى جانب أهلها وفي ظل الإسلام، وقد وردت اسماؤهم في رواياتنا واحداً واحداً، وهم الذين عقدوا العزم على اغتيال النَّبيﷺ ليلة العقبة، ونزلت هذه الآية بحقهم، وذكرهم ابن إسحاق وابن هشام وكلهم من المهاجرين.

٢. النساء (٤): ٨٨.

ليس المنافقون فئتين. ثم يواصل إخباره عنهم، فيقول سبحانه: ﴿حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[١] أي: لا تكفي الهجرة وحدها، ولا يكتسب صاحبها ميزة، إلا أن تكون في سبيل الله تعالى، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ﴾. والقصد من ذلك هم المهاجرون.

ومن هنا ندرك أنَّ الأنصار ـ وهم قوم من أهل المدينة ـ خارجون من موضوع الآية تخصصاً، ولا معنى لقوله ﴿حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ﴾ ما لم يكونوا من المهاجرين، والله تعالى يريد أن يعلن للمسلمين المغفلين ليفهموا أنَّ الهجرة لا تعد امتيازاً، بل الهجرة ذات النفع والجدوى هي الّتي كانت في سبيل الله تعالى، ولذا في كل موضع يذكر الله الهجرة يعلنها هجرة في سبيل الله، لكي تتمحض لذلك وحده، عند ذلك تكون مدعاة للفخر والمباهاة، وعلامة ذلك أن لا يفزع المهاجرون من القتال في سبيل الله، وأن يقاتلوا العدو، سواءاً قُتلوا أو قَتلوا، وليست الهجرة أن يفعلها المرء ثم هو يجبن عن مقارعة العدو ويهرب إذا حمّ اللقاء معه.

علامة الهجرة في سبيل الله ...!

وعرّفت الهجرة في جميع الآيات الّتي ذكرتها بأنّها هجرة في سبيل الله، وقرنت بالجهاد في سبيل الله أيضاً. وأنعِموا النظر في هذه الآيات الشريفة بدقة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ

---

١. النساء (٤): ٨٩.

يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[١]

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.[٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ﴾.[٣]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾.[٤]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾.[٥]

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[٦]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

---

١. البقرة (٢): ٢١٨.

٢. آل عمران (٣): ١٩٥.

٣. الأنفال (٨): ٧٢ .

٤. الأنفال (٨): ٧٤ .

٥. الأنفال (٨): ٧٥ .

٦. النحل (١٦): ١١٠.

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.[١]

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾.[٢]

وكل هذه الآيات تتضمن الهجرة في سبيل الله شريطة رسوخ القدم والثبات على الجهاد، وفي ضمن ذلك مقابلة أعداء الله تعالى.

ومن يعدّ الهجرة دليلاً على اللياقة الإيمانيّة أو على الامتياز بالسبق، فإنه يعتبر مغفلاً، لأنَّ الهجرة لا تحدث إلا لدواعٍ مختلفة، وربما كان بعض المها-جرين ممن لازم ركاب رسول الله ﷺ ولكنه مشمول للآيات الخاصة بالمنافقين، وهو مصداق لها، وهم أولئك الذين ستروا نفاقهم بالهجرة.

من ثمَّ أمر الله المسلمين في سورة النساء أن يحتزموا لقلع جذور النفاق من أساسه في ثلاث آيات، بأمرين مهمين: حيث لم يعمل المسلمون بمفادهما مطلقاً، وهما: ١ـ أن لا يختاروا من المنافقين قائداً، ٢ـ وأينما وجدتم المنافقين فاقتلوهم.

حرمة ولاية المنافقين ...!

يحرّم الله تعالى في الآية ٨٩ من سورة النساء ولاية المنافقين وإمرتهم على المسلمين، ويقول سبحانه: **﴿فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء﴾**، وجاء الولي بمعانٍ مختلفة: «المحب»، «الناصر»، «القائد»، ولا يمكن هنا أن تكون ولاية المنافق بمعنى المحبة لأمرين:

---

١. الحج (٢٢): ٣٩ـ٤١.
٢. الحج (٢٢): ٥٨.

الأمر الأول: تحث هذه الآية المسلمين أن يقطعوا الصلة بالمنافقين، لا أن ينكروا محبتهم والعلاقة بهم إن حاولوا إبرازها، مع أنَّ أحداً منهم إن حاول إبراز المحبة، فلا يقابلوه بعمل إيجابي، وهذه الآية تمنع مخاطبها من أداء أيّ عمل كان.

الأمر الثاني: الولي هنا ليس بمعنى المحب بناءاً على وجود «من»؛ لأنه لو كان بهذا المعنى فلا مكان لـ «من» هنا، ولو كانت الولاية هنا بمعنى المحبة، لكان يقول: «فلا تتخذوهم أحباباً لكم»، بينما قال سبحانه: ﴿فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء﴾ وهذا يدل على أنَّ الولي ليس بمعنى المحب.

وكذلك هو ليس بمعنى الناصر بدليل تعقيب الآية بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[١] ولو كان كذلك لكان تكراراً مستهجناً.

وبناءاً على هذا يكون الولي بمعنى الآمر، والله تعالى ينهى المسلمين أن يتخذوا من المنافقين ولاة وأمراء، والملفت للنظر هنا أنّ هذه الآيات بإجماع المفسرين من أهل السنة نزلت في السنة الثالثة من الهجرة بعد حرب أُحد، يعني كاد المجتمع المسلم في المدينة أن يتخذ من المهاجرين المنافقين قادة وأُمراء، وحينئذ ينبغي أن يعلم المرء بأن هناك يداً خفيّة تحاول أن تدفع بالمنافقين إلى أمام ليتقدموا وينالوا الولاية على المسلمين، ومن الغفلة بمكان أن يتصوّر المرء بأنَّ المدينة انقلبت بعد موت النّبيﷺ من النقيض إلى النقيض.

ومن النكت الظريفة هنا أنَّ نوعاً من استقراء الغيب يكمن في الآيات الشريفة،

---

١. ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا في سَبيلِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصيراً﴾.

وينبئ عن مستقبل مظلم يهدد المجتمع المسلم في المدينة.

الأمر بقتل المنافقين ...!

في الآية المذكورة[١] صدر الأمر بقتل المنافقين بعد أن تنكّر المهاجرون للهجرة في سبيل الله، وخاطب الله المسلمين فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وهذا حكمٌ عام بالنسبة إلى المكلف، وهو إما للمجموع أو للفرد.

والعام للمجموع: كقوله تعالى مخاطباً نبيّه في سورة الأنفال:

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.[٢]

فإنَّ هذه الآية من نمط «العام المجموعي»، ومعناها: أنَّ الجهاد لا يجب على المكلفين إلا أن يتحقق العدد المذكور في الآية الشريفة، فإن فقد العدد سقط التكليف عن الجميع.

ولكن الآية في سورة النساء المباركة ـ الّتي نبحثها الآن ـ يخص التكليف فيها الفرد لا المجموع، خلافاً للعام المجموعي الّذي يتوقّف وجوبه على حصول العدد اللازم، ومع ذلك فإنَّ العام الفردي يتعين فيه إجراء الحكم على كل فرد وجد القدرة على إجرائه.

---

١. النساء (٤): ٨٩.

٢. الأنفال (٨): ٦٥.

وفي هذه الآية الشريفة يقول سبحانه: وأنتم أينما وجدتم المهاجرين المنافقين فاقتلوهم.

وهذا التكليف عام من جهة، ومن جهة أخرى «عام فردي» أي: مَن وجد القدرة على قتلهم إن كان وجدهم فليفعل ذلك، فإنه واجب عليه، وليقتل من قدر على قتله. غير أنَّ مَن فقد القدرة على ذلك فهو ساقط عنه.

ولكنَّ المسلمين لم يعملوا بحكم هذه الآية، وليس هذا فحسب، بل وضعوا حكم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[١] تحت أقدامهم.

وبناءاً على هذا، يمكن استنباط نكات أربع من هذه الآيات الشريفة:

النكتة الأولى: من المقطوع به أنَّ المقصود بهذه الآية ليس عبدالله بن أبي وبطانته.

أولاً: بدليل من الآية حيث أنها تشير إلى المهاجرين. وثانياً: أن عبدالله بن أبي هلك والنَّبيﷺ على قيد الحياة، وقد شرحنا ذلك فيما تقدم من الصفحات.

النكتة الثانية: فإذا قيل إن هذه الآيات الثلاث نزلت بعد حرب أُحد، وحديث زيد بن ثابت في المدينة ناسخ لها، فإنا نقول: قد بيّنا أن هذا الحديث الّذي وقع موقع القبول من أهل السنة مردود من قبلنا، ولو افترضنا جدلاً أنّ الحديث صحيح، فلماذا ما برح الحديث عن المنافقين يتعالى في سورة المائدة الّتي نزلت باتفاق المفسرين في حجة الوداع مرّة واحدة في مكان واحد على النّبيﷺ؟ والأقرب إلى الاحتمال أنَّ زيد بن ثابت عمد إلى وضع الحديث بناءاً على دواع أخرى.

---

١. النساء (٤): ٨٩.

النكتة الثالثة: أنَّ هؤلاء الذين عنتهم الآية مهاجرون دون أدنى ريب، يعيشون داخل المدينة، ولا تعني أولئك المهاجرين الذين عادوا إلى الكفر والإلحاد مرّة أخرى بعد أن تخلصوا منها، نظير الوليد بن عقبة بن أبي معيط الّذي أسلم، وكان كما يقول التاريخ كاتباً للوحي، ولكنه عاد إلى دينه الأول، ومما لا ريب فيه أنَّ الآية لا تعنيه هو ومن على شاكلته، وليس مصداقاً للآية.

النكتة الرابعة: كان هؤلاء الأشخاص ممن تعرفهم المدينة حق المعرفة، ولو لم يكونوا كذلك لكان التكليف بقتلهم تكليفاً بما لا يطاق، فكيف يأمر اللهِ المجتمع بقتل شخص مجهول. والشاهد على ذلك: أنَّ الآيات الّتي ذكرناها اعتبرت المهاجرين في سبيل الله هم أولئك الذين ثبتت لهم قدم في الجهاد. والمهاجرين المنافقين، هم أولئك الذين استدبروا الجهاد في سبيل الله، ومن حيث كون هذه الآيات نزلت بعد حرب أُحد، فإن المسلمين جميعاً يعلمون ذلك، ويعلمون من مِن هؤلاء هربوا من القتال، ومن منهم كان يغري المجاهدين بالفرار ويحرضهم عليه. ومَن من المهاجرين كان ثابت القدم في الجهاد والنصرة ودافع عن النّبيﷺ إلى آخر نفس من حياته، وظل الاثنان على ما كانوا عليه طيلة حياتهم.

ومن هنا ندرك أنَّ حديث زيد بن ثابت موضوع، فإنَّ مجتمع المدينة بعد انتقال النّبيﷺ إلى الرفيق الأعلى واجه تناقضاً من جهة الخلافة، فمن جانب حرّم الله تعالى إمارة المهاجرين الذين أدبروا عن الحرب ولووا رؤوسهم عن القتال، ولم تكن هجرتهم هجرة في سبيل الله تعالى، ولكنه من جهة أخرى يروهم الناس مع ما هم عليه من النفاق على منبر رسول اللهﷺ. وقد تبنّوا وضع حديث زيد بن ثابت لكي يقال:

إنَّ المدينة تطهّرت وفسحت مجالها للمتطهرين بل المطهّرين. ولها خاصية بها تطرد المنافق أو تقلبه إلى مؤمن وتبقيه في مجالها وساحتها.

يعني لو قدّر لكم أن تروا شخصاً قد فرّ من ساحة القتال، وهو مصداق لمن لم يجاهد في سبيل الله، ويجب على المسلمين تصفيته، ولا يرشّح للحكم أبداً، ولكنكم اليوم ترونه وقد افترع القمّة الشماء، وجلس على مسند الخلافة، فإنَّ ذلك يرجع إلى خصوصيةٍ في المدينة، حيث تُبدِّل المنافقين إلى مؤمنين، وتغيّرهم من حال سيئة إلى حال حسنة!

الهدف الواقعي للمنافقين من الهجرة

وبناءاً على ما قلناه لحدّ الآن فإنه لا تعدّ كل هجرة في سبيل الله، وقد تكون لأسباب ودواع مختلفة، والهجرة الّتي تعطي صاحبها الميزة والتقدم، هي ما كانت في سبيل الله، وطبقاً لما جاء في آيات القرآن الكريم فإن علامة الهجرة المُتقرّب بها إلى الله، والكائنة في سبيله، هي الثبات على مبدء الجهاد.

وعلى هذا الأساس فإنَّ هنا سؤالاً يفرض نفسه، وهو: على أيّ داع من الدواعي عرّض المنافقين أنفسهم لخطر الهجرة، وتحملوا أعباءها وشرورها، بثمن نفوسهم، واصطحبوا النَّبيﷺ فيها؟

عند ما نعود إلى التاريخ ونستقرئ أحداثه، ونخضعها للبحث الدقيق، فإنّنا نصطدم بهذه الحقيقة، وهي: أنّ المنافقين لم ينقلوا قدماً عن قدم في الهجرة إلا طمعاً بنيل السلطة.

وهنا نلفت انتباهكم إلى الحوار الّذي دار بين الخليفة الثاني وابن عبّاس، وفي أثناء ذلك يعترف الخليفة بأمور مهمة تختص بمعارضاته بشأن الخلافة:

«فقال [عمر]: يابن عباس، أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أميرالمؤمنين، قال: لكني أدري، قال: ما هو يا أميرالمؤمنين؟! قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، فيجخفوا جخفاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أميرالمؤمنين عني غضبه، فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال: أما قول أميرالمؤمنين إنَّ قريشاً كرهت، فإنَّ الله تعالى قال لقوم ﴿ذلِك بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُم﴾[١]. وأما قولك: إنا كنا نجخف، فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول اللهﷺ الّذي قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] وأما قولك: فإن قريشاً اختارت، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[٤] وقد علمت يا أميرالمؤمنين أنَّ الله أختار من خلقه لذلك مَن اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت قريش».

---

١. محمد (٤٧):٩.

٢. القلم (٦٨): ٤.

٣. الشعراء (٢٦): ٢١٥.

٤. القصص (٢٨): ٦٨.

ولما ضاق عمر بقول ابن عباس ذرعاً، فقال لابن عباس:

«على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول، فقال ابن عباس: مهلاً يا أميرالمؤمنين، لا تنسب هاشماً إلى الغش، فإنَّ قلوبهم من قلب رسول الله الّذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]. وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غُصِبَ شيئه ويراه في يد غيره، فقال عمر: أما أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به، فتزول منزلتك عندي، قال: وما هو يا أميرالمؤمنين، أخبرني به، فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يك حقّاً فإنَّ منزلتك عندي لاتزول به. قال: بلغني أنّك لاتزال تقول: أُخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال: أما قولك يا أميرالمؤمنين: حسداً، فقد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود، وأما قولك: ظلماً، فأميرالمؤمنين يعلم صاحب الحق من هو؟!»[٢].

---

١. الأحزاب (٣٣): ٣٣.

٢. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ١٢/ ٥٣ ـ ٥٤: نقلاً عن عبدالله بن عمر؛ و راجع: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

الفصل الخامس

آيات الختام الخاصّة بحرب أُحد

القسم الأول: دراسة الآيات

يظهر بالتأمل الزائد في المقطع اللاحق من سورة آل عمران المباركة: أنَّ الله تعالى في آياته ناظر إلى جملة أهداف، وكلها جاءت جواباً لأصحاب الأقوال الباطلة، وبعضها يتصل بحادثة الحرب في أُحد، وبعضها يصلح أن يكون جواباً لكلِّ الأزمان عن الأقوال الباطلة.

بيّن الله تعالى عدة أمور فيما أظهره من الأقوال الخاصة بوقوع الأحداث في حرب أُحد، ونحن فيما يلي نشير إلى ذلك إشارة عابرة، وحاصلها: أنَّ الله تعالى قد أشارَ في البدء إلى الوقائع الّتي حدثت قبل الحرب، فقال سبحانه: أخبر الله المسلمين عن المؤامرات، ونبههم إلى ذلك، وحذّرهم من عواقبها، حيث يقول جلَّ وعلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ﴾**[1]، ثم أشار سبحانه إلى الأسباب المؤثرة في استسلام المؤمنين لهذه المؤامرة، وقطعَ عليهم طريق الغدر والتذرع به.

وذلك: أولاً: بأن أحاطهم علماً بأنَّ مولاهم ووليهم هو الله وليس المنافقين. وثانياً: أخبرهم بأنّهم أغنياء عن عون المنافقين؛ لأنَّ الله نعم الكفيل والمعين لهم، ووعدَ

---

١. آل عمران (٣):١٤٩.

المسلمين بالنصر آخر الأمر وقال: سوف تغلبونهم باستيلاء الهلع والفزع على المشركين، ثم انتقل من خلال ذلك إلى وقائع ما بعد الحرب فقال: إنّ الله وفى بما وعدكم، ولكنكم تخاذلتم واختلفتم في مسألة الاشتراك في المؤامرة، مما أدّى إلى هزيمتكم، واستولى عليكم الغم لعصيانكم أمر الله تعالى، ثم تغشاكم النعاس للحفاظ على حياتكم، وكان موجباً لأمنكم، ثمَّ خاطبهم من أجل إدخال العزاء على قلوبهم: بأن لا تحسبوا أن الخسائر في أُحد غير قابلة للتعويض والسداد، ولا تأسفوا على فقد أحبتكم الموجب لحرمانكم من الإرث الأكثر[1] لأنّه: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

ما سبق من مجموع الأقوال الّتي ذكرناها على نحو الإجمال مختص بمسائل الحرب الّتي دارت في أُحد، ولكنَّ الآيات ناظرة مضافاً إلى ما تقدم نحو هدف أسمى وأجل، وهو ـ كما سبق بيان نبذةٍ منه ـ الرَّدُ على أقوال الجهال الباطلة في كلِّ الأزمنة أمس واليوم.

فالله سبحانه في هذه الآيات بصدد بيان هذه النكتة، وهي: أنّ تقدير الأمور كلّها بيد الله تعالى، وحياة الكائنات كلّها وموتها بمشيئته جلّت قدرته وبتقديره. ومَن أُوذي في سبيل الله، لم يكن خاسراً، ولم تَجرِ هذه الأمور في غفلة من الله تعالى، بل بعلم سابق منه، وبناءاً على المصلحة الّتي يعلمها وعلى القدر الّذي قدّره.

---

١. يرى بعض المغفلين أن الإنسان كلما عمل أكثر كان جمعه للمال أكثر.

٢. آل عمران (٣): ١٥٧.

فلو وقع تقديره على أمرٍ ما، فإنَّ وقوعه محتمٌ لا ريب في حدوثه، وعن ذلك قال الله سبحانه:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾.[١]

وقال كذلك سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.[٢]

وبيّن نماذج كثيرة من شهادات الأنبياء عليهم السلام ووضعها بين يدي المشركين، ونحن نشير هنا إلى بعض مواردها:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾.[٣]

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[٤]

وبناءاً على هذا، فإنَّ الله عالم بما يؤول إليه أمر أنبيائه عليهم السلام من القتل والإيذاء، ويعلم أنَّ عدداً منهم يُقتلون بيد الكفار، ومع ذلك فإنّه يرسلهم إلى الناس، ولكن ما هو السبب في ذلك؟!

---

١. الحديد (٥٧): ٢٢.
٢. آل عمران (٣): ١٥٤.
٣. البقرة (٢): ٨٧.
٤. البقرة (٢): ٩١.

مع بذل الجهد والتأمل في كتاب الله يسهل الجواب عن هذا السؤال ويتضح.

أولاً: إنَّ الله تعالى أوجب على نفسه هداية الناس، ولا يتحقق ذلك إلا ببعث الأنبياءعليهم السلام وإرسالهم، ولا صلة له بقبول العباد أو رفضهم، ولكنهم يُمتحنون بذلك، وأما الحكمة العليا المترتبة على ذلك، فهي حفظ الدين بقدرة الله تعالى، وهذا لا يكاد يخفى على أحد، وما هدف الكفار من قتل الأنبياءعليهم السلام إلا محق الدين، ولكن الله يمكر أمام أهدافهم: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١] فهم يصمدون إلى الأنبياءعليهم السلام ويقتلونهم، ويزعمون أنّهم بقتلهم يمحقون الدين، وما دروا أنَّ قتلهم مدعاة لاتّجاه الناس نحو الدين وتمسكهم به، وزيادة إقبالهم عليه وعلى الله تعالى.

والشاهد على ذلك شهادة سيد الشهداءعليه السلام، فإنَّ عدو الإسلام أراد القضاء على الدين بقتله، ولكن قتله بالكيفية القاسية الّتي تَمَّ بها جَرّ إلى بروز عواطف الناس تجاهه بشكل لم يسبق له نظير أبداً، واستمر إلى يوم الناس هذا، وسوف يظل قائماً إلى الأبد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

طائفة من الذنوب تؤدي إلى بعض الإنحرافات ...!

يقول الله تعالى في تمام حديثه عن أُحد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.[٢]

---

١. الأنفال (٨): ٣٠.

٢. آل عمران (٣): ١٥٥ .

وهو بهذا يشير إلى نكتة ظريفة، وهي أنّه رغم القدرات الشيطانية الهائلة فإنه يعزو عامل اقتداره إلى هوى النفس، ولذنوب الإنسان تأثير في وضعه الإيماني، فتكون بعض الجرائم سبباً لجملة من الشذوذ والانحرافات، وأحياناً تسبب دخول الإنسان إلى جهنم، وتحمله على الكفر: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] وجاء في بعض الروايات: « ... إن المرء إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع فاستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد فذلك الرين الّذي ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾».

وبناءاً على هذا، فعلى الإنسان أن يدرك عواقب جرائره، إذ ربما تعرض للإنسان لحظه شهوة تجر وراءها الندم مدى الحياة[2] ثم قال الله تعالى بعد بيان هذه النكتة: إنَّ الله عفى عنهم وسامحهم؛ لأنه غفور رحيم.

شبهات المنافقين الذين لم يصحبوا النبيّ منذ البداية:

وفي الآية اللاحقة يُحذّر الله تعالى المؤمنين من الانصياع إلى المنافقين والخضوع لأقوالهم وعقائدهم بحق المقتولين في أُحد، فيقول جَلَّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ

---

١. المطففين (٨٣): ١٤.

٢. كان ابن ملجم المعلون عازماً على قتل الإمامعليه السلام وجاء الكوفة على هذا الأساس، ولكن الأشعث استقبله ليسهل عليه مهمته ويعينه لكي تنجح، فعرّفه على قطام لعنة الله عليها حتى تفتنه بجمالها ويباشر عمله بجديّة أكثر.

﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[١]

وليس الحديث هنا عن المنافقين الذين سبق الحديث عنهم في الآية ١٥٤، بل الحديث عن أولئك القوم الذين لم يصحبوا النّبيﷺ منذ البداية، وكانوا يقولون لإخوانهم: لو سمعتم قولنا لما قتلتم ها هنا.

ومن هذه الآيات يتجلى لنا أنَّ القتلى في أُحد من المسلمين قد تركوا أثراً سيئاً كبيراً على التفكير العام، لأنَّ هذه الحرب بخلاف ما كانت عليه الحرب في الجاهلية، فقد كانت «غزّاً» وأشار الله إلى ذلك في الآية المباركة، وذلك أنَّ الجيش المهاجم يكمن بالليل، فإذا حضر الصباح أعلن هجومه بغارة شعواء على خيام العدو، وعندئذ إما أن يهزموه ويقتلوا رجاله، أو يأسروا من بقي منهم على قيد الحياة، وإما أن يخفقوا في هجومهم وتحلّ بهم الهزيمة ويولون مدبرين.

وكانت حرب بدر قد جرت على هذا المنوال من الأسر والقتل، فقد قتل من الكافرين جماعة كثيرة وأسروا آخرين.

ولكن الحرب في أُحد جرت على عكس ذلك تماماً، فقد قتل من المسلمين جمع كثير دون أن يحصلوا على شيء، وفي هذه البرهة جرى الحديث عن القضاء الإلهي، وعدم دخول القدرة البشرية في مثل هذا المصير، مما اختصه قضاء الله سبحانه، وخاطب الله المؤمنين بأنَّ القتل في سبيل الله لايعدّ خسارة للمؤمن، كما يقول في الآية التالية:

---

١. آل عمران (٣): ١٥٦.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[١]

وكان المسلمون يرون أنَّ البقاء في الدنيا مدّة أطول مدعاة لجمع المال الأكثر، لذلك يقول الله تعالى لهم أن مغفرة الله خير من المال الّذي يجمعونه في دار الدنيا، وأعطاهم شواهد على ذلك: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾[٢] وتشملكم رحمة الله.

لطف النَّبي رحمة من الله!

وفي الآية التالية يجيب الله عن اعتراض قوم من أهل الغلو من المؤمنين فيقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.[٣]

فيشير إلى عدد من النكات؛ إذ في البداية يوجّه الخطاب إلى النّبيﷺ فيقول: إن دمانة الأخلاق ولين الجانب الّذي تتحلّى به ما هو إلا رحمة من الله سبحانه، وهو بهذا يردّ على أهل الإفراط من المؤمنين.

وتوضيح هذا الأمر هو: أنَّ النَّبيﷺ كان على جانب العفو عن المؤمنين الّذين انهزموا مع المنهزمين، وانحازوا إلى العدو، فعفى عنهم وقبل عذرهم، ولذلك عارضه

---

١. آل عمران (٣): ١٥٧.

٢. آل عمران (٣): ١٥٨.

٣. آل عمران (٣): ١٥٩.

بعض المؤمنين المفرطين، وقالوا: إنَّ النَّبيﷺ لا حزم له (نعوذ بالله)، ولذا ليس بمقدوره أن يدير هذا المجتمع.

وأراد الله بهذه الآية أن يقفل أفواه هؤلاء المقدسين المفرطين، لذلك جعل هذا اللين والسماح رحمة من جهته سبحانه، وبهذا التصريح نصَّ على موقع النَّبيﷺ من المجتمع من حيث كونه رحمة إلهية واسعة، كما يقول في مكان آخر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١]، ويكمل الآية فيقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢]، وبالقول هذا ينص على الهدف من تشريع هذا الدين؛ لأنَّ الأصل في المسألة يدور حول تأثير الدين في القلوب، فيقول:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[٣]

ويقول في موضع آخر:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[٤]

وبناءاً على هذا لو أنَّ الدين لم يمسّ القلوب فيغير واقعها، لما تأتّى له أن يصنع شيئاً، وبعبارة أخرى: إنَّ أساس قدرة القادة الربانيين (الأنبياءﷺ) يرتكز على إيمان

---

١. الأنبياء (٢١): ١٠٧.

٢. آل عمران (٣): ١٥٩.

٣. الحجرات (٤٩): ١٤.

٤. الأنفال (٨): ٦٣.

الأفراد، وليس على الإعجاز، يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١]

ويستفاد من هذه الآية أيضاً بأنَّ الإيمان ينبغي أن يتمّ بالاختيار لا بالقهر والإكراه.

ولذلك من أجل أن ينحاز الناس بمحض الاختيار والرغبة إلى الدّين، فينبغي أن يكون نبيّه صاحب رحمة وخلق صالح، وإلا فلن يُقبل الناس على الدّين، ومن أجل ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.[٢]

موقع المؤمن وحقوقه ازاء النَّبي الأكرمﷺ:

مضافاً إلى هذه الأقوال الكريمة، فإنَّ الله تعالى في استمرار بيانه للآية الكريمة يبيّن موضع المؤمن وَمَالَهُ عند النَّبيﷺ من الحقوق الّتي أقرّها الله للمؤمنين، ومنها قبول العذر، ومنها العفو، كما يقول في الآية الأخرى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً﴾.[٣]

---

١. يونس (١٠): ٩٩.

٢. آل عمران (٣): ١٥٩.

٣. النساء (٤): ٦٤. في هذا القسم من القرآن المجيد يوجد تعبير طريف جداً، وذلك أنَّ الله تعالى يمكنه أن يجعل الكلام بلغة الخطاب فيقول: استغفرت لهم، أي: يأتي بالكلام مخاطباً به النَّبيﷺ، ولكنه استعمل

وبناءاً على هذا، لو أنَّ المؤمن بعد ارتكابه الذنب استغفر الله واعتذر إليك فعليك أن تقبل عذره وتعفو عنه. ومضافاً إلى قبول العذر فعلى النَّبيﷺ أن يستغفر للمؤمن ويطلب له السماح[١] والتجاوز، وهذا حق آخر من حقوق المؤمنين على نبيّهم، وآخر حق أقره الله بين النَّبيﷺ والمؤمن هو حق المشورة معه.

أصل المشورة في المجتمع الإسلامي!

لما كان هذا الموضوع مهماً للغاية، وقد وقع عرضة لسوء الاستفادة، فعلينا أن ندقق فيه أكثر وأكثر ونبحثه بجدّية أكبر.

المَشُورَة: هي عبارة عن «استطلاع رأي الخبراء وأصحاب الرأي في مسألة معينة لاختيار الأصلح»[٢] وهي عبارة عن إدراك الواقع لأناسٍ يقضي الاحتمال بتفوقهم عليه في المعرفة، فيطلب كشف آرائهم ونظرهم. وهذا النظر ينبغي أن يكون مبنياً على أساس الواقعية، وكون المؤمن طرفاً في المشورة؛ لأنه يشير بكلّ ما يعود لمصلحة المؤمنين لا للهوى والمزاج الشخصي. وبناءاً على هذا فللمؤمن كل الحق أن يبدي رأيه، ويظهر نظره في كلّ ما يعود لصلاحه وصلاح مجتمعه، وبالطبع ليس هذا عاماً، فما كلُّ

صيغة «استغفر لهم» ليعلم أنَّ هذا المقام مقام الولاية الإلهية، ولا يختص بالنَّبيﷺ وحده، بل يتعدى مَن بعده إلى الإمام الحائز على مثل هذا المقام، والآن يختص هذا المقام بصاحب الزمانﷺ لماذا؟ لأنه لو كانت نبوة النَّبيﷺ مختصة بأولئك العرب المعدودين في زمانه لكان مقام الاستغفار خاصاً بذلك الزمان أيضاً، ولما كانت نبوة النَّبيﷺ تمتد إلى يوم القيامة، فينبغي أن يمتد هذا المقام بامتدادها، ووالله لو بذلنا قليلاً من التوجه إلى ولي العصر والزمانﷺ فإنه يبذل لنا عناية خاصة؛ لأنه هو نفسه رحمة للعالمين، كما كان جدّه رحمة للعالمين أيضاً.

١. جاء في بعض الروايات: أن الإمام الصادقﷺ قال لأحد شيعته: أنا طالعت صحيفة عملك البارحة، وسررت من إحسانك لنا، ولكن سائني الذنب الّذي ارتكبته، فاستغفرت الله لك.

٢. معجم لغة الفقهاء: ١/ ٤٣٢.

الأشخاص يمكن أن يوثق بهم وبآرائهم، بل هناك من يطلب منه إظهار نظره في مجال تخصصه، وكل فرد مطلوب منه ذلك.

وحرب الخندق شاهدٌ على ذلك، حيث أشار سلمان المحمدي فقبل النَّبيﷺ شوره وأمر أن يطبق ويعمل به.

والمقصود من أمرهم الوارد في الآية هو كل موضوع يرتبط بالجماعة، ولهذا الأمر حدود خاصة ينتهي عندها، وقد بيّنها الله تعالى بالبيان التالي:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾.[١]

أي: أنّه لا محلّ للمشورة في الحكم الإلزامي، وإنما تتحقق في الأمور غير الإلزامية. ولإيضاح ذلك نقول: خذ الحج مثلاً، فإنّ وجوبه إلزامي، فلا مجال للمشورة هنا ولكن تحصل المشورة في مسألة انتقال الحجاج إلى مكة، هل يكون عن طريق الجو أو البرّ؟ وهكذا يقال في الجهاد فإنَّ حكمه إلزامي مع النَّبيﷺ، وأما في كيفيّته فالمشورة جائزة.

وبناءاً على هذا، فإنَّ آية الشورى لا تُجوّز تغيير الأحكام على أساسٍ منها بزيادة أو نقصان، لأنها أحكام إلهية فيها الحلال وفيها الحرام، وذلك لما كانت الأحكام الإلهية أبدية فإنَّ الله تكفّل بحلِّ المشكلات الاحتمالية الّتي تحدث جرّاءها في القرآن نفسه، ومن غير المعقول أن يكون الدين أبدياً ولكن لا توجد حلول لمشاكله.

---

١. الأحزاب (٣٣): ٣٦.

فخذ موضوع النكاح عيّنة نستدل بها على هذا الاتجاه، فإن الله تعالى يقول:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾.[1]

وفي هذه الآية قد أذن الله في الزواج بأكثر من واحدة، ولكن قد تنشأ جراء ذلك مشكلة ما، فيقول ولكن الزوجة الواحدة تبعدكم عن الظلم، وعليه فأنتم تستطيعون القيام بالعدل إذا اتبعتم إرشادات الله وهدايته. وبناءاً على هذا، فإنَّ تدبير الله لسير المرء على طريق الهداية موجود في الآيات نفسها[2] وبناءاً على هذا يتضح أنَّ المشورة في المجتمع لابدَّ منها، لأنّها تجمع العامة على الاتفاق وتسهل إجراء الأمور وتضمن المشورة اتخاذ التصاميم اللازمة لذلك، وكذلك اتضحت الأمور الّتي تجوز فيها المشورة.

وأما الحكم الإلزامي: فلا تجوز فيه المشورة، ومن المؤسف حقاً أنَّ الشورى جرى تأويلها في آثار الكُتّاب الإماميين المعروفين، لا العلماء الكبار منهم، ومما يعني وجود التشويش والاضطراب، وعلة هذا التأويل من أجل مغالطة أهل السنة والاستفادة الخاطئة منها، وتحريف معنى الآية؛ لأنهم وضعوا على السقيفة اسم الشورى وسمّوا

١. النساء (٤): ٣.

٢. وأحياناً يصل الأمر عند القائم على إدارة المجتمع أنه لا يرى الإشكال في إجراء الحكم وحده، بل يراه أيضاً في الحكم نفسه، ولكن هنا تمكن الاستفادة من آية الشورى ويستطيع المرء أن يجري تغييراً على نفس الحكم، ولكن المرء هذا هو المخوّل بذلك من قبل الله تعالى، حيث أعطاه الاختيار حول الموضوع، ولذا أسهل طريق للوصول إلى هذا المنظور هو إعطاء حق التشريع له، ومن هذا المنطلق يبدأ ادعاء الولاية.

تعيين عثمان من بين الستة من رجال الشورى باسمها أيضاً[١]، وبناءاً على هذا فإنَّ الشورى في الكتابات المتعارفة تُؤول لكي لا تقع في معرض الأغراض السيئة لأهل السنة، وقد قام أساس هذا التأويل على محورين:

الأول: أنه قد قيل بأنَّ الشورى من حيث الحكم الأولي ليست للمشورة، بل الهدف منها هو تأليف القلوب، ولكي نثبت هذا المدّعى نستند إلى الشاهد من الآية التالية، وهو مطلعها فإنَّ الله تعالى يقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.[٢]

وفي علة التأويل هنا يقال: لما كان المخاطب في الآية هو النَّبي الأكرمﷺ وهو لا يحتاج إلى المشورة في معرفة ما يصلح المجتمع وما يفسده، فلا يفتقر إلى استشارة أحد[٣] لذلك كانت الشورى لتأليف القلوب لكي لا يشعر المؤمنون بأنّهم لا أثر لهم في تكوين المجتمع، وفي إدارة شؤونه، وبمشورتهم يشعرون بأنّهم غير مهملين في حركة التكوين هذه.

---

١. يقول أمير المؤمنينؑ في مسألة الشورى السداسية هذه: فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر. (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٨٤).

٢. آل عمران (٣): ١٥٩.

٣. كان أبوبكر يقبل الشورى بهذا المعنى، فقال في بدء خلافته ، عند ما سئل عن هوية سيرته، قال: النَّبيﷺ يوحى إليه ولا يوحى إليَّ، فأولاً أعمل بكتاب الله ما وسعني الفهم، وبعده بالسنة إن كان معي شيء منها، وبدونهما أجتهد في العمل برأيي. والاجتهاد عند أهل السنة في الموارد الّتي لا توجد في الكتاب والسنة، وعلى هذا التفسير للاجتهاد ردّه الأخباريّون. ولكن الاجتهاد عند الشيعة على أساس الكتاب والسنة، ومن هذه الجهة كان الاجتهاد سبباً في عناء أهل العلم لما فيه من الاشتراك.

وهناك جماعة أخرى تُأَوِّل الآية على النحو التالي: لما كانت الآية نازلة في المنافقين، فإنَّ الأمر بالشورى كان من أجل معرفتهم والإرشاد إليهم، ويستدلون على ما ادّعوه بهذه الآية:

﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.[١]

وبناءاً على هذا، فإنَّ الله تعالى لما أخبر النَّبيﷺ أنّه يعرف المنافقين من خلال نبراتهم ولحن أقوالهم، لذلك كان النَّبيﷺ ملزماً بالمشورة مع المسلمين ليستخرج المنافقين من بينهم.

ولكنّ الواقع أنه لا حاجة لأيّ واحد من هذين التأويلين. ونسوق هذا القول مثالاً على ذلك: أن النَّبيﷺ ما به من حاجة إلى السؤال عن سعر التَّمر، فقد كان يسأل البائع عن ذلك، ولا نقول بأنه يستعمل العلم الإلهي في معرفة هذا الأمر التافه، ولا حاجة للبحث في هذا الموضوع.

ولكن في مسألة المشورة ينبغي أن يقال: إنَّ النَّبيﷺ يريدها أن تجري في أمور المجتمع، لكي يسنّ لولاته طريقة إدارة المجتمع على النحو السليم، ويعلمهم على قيادته بهذه الطريقة المرغوب فيها، ومثال على ذلك نقول: إنَّ النَّبيﷺ كان قد عيّن والياً للطائف ومكة، أو أنّه كان غائباً في بعض المعارك وكانت القيادة بيد شخص آخر، فلذا كان عليه أن يعلّم هؤلاء المؤمّرين على طريقة إدارة المجتمع وقيادته بشكل عقلائي، لا على أساس علمه الإلهي، لأنَّ الولاة وأمراء السرايا والقادة الذين يعينهم

---

١. محمد (٤٧): ٣٠.

من جانبه ليسوا معصومين، وليس لهم علم كعلمه، وينبغي عليهم أن يخرجوا من عهدة التكليف الّذي أُنيط بهم على أساس من الضوابط العاديّة.

ومثال آخر: لنفرض أنَّ والداً كان يملك القدرة على إدارة شؤون عائلته، ولكنه من أجل أن يدرأ عن نفسه لوم أولاده وصغاره يسأل أهل بيته عن احتياجاتهم، وليس هذا من أجل تلقين الأولاد معرفة حاجاتهم، بل ليعلمهم أن يعرفوا الحاجات الخاصة بهم. وهذه هي الطريقة المعقولة في إدارة العوائل بصفتها مجتمعاً صغيراً.

وبناءاً على هذا، فإنّ النّبيﷺ والأئمةعليهم السلام مهما استغنوا عن آراء الناس في الأمور كلها، ولكنهم يسلكون مع الناس على أساس تدريبهم طبقاً للضوابط العادية والطرائق العقلائية، فمثلاً عند ما يُسئل الإمامعليه السلام عن سوق المسلمين ويد المسلم، يجيبعليه السلام: بأنَّ اليد امارة الملكية، وسوق المسلمين دليل على طهارة الأشياء الموجودة فيها[١]، وفي مقام العمل بناءاً على بعض الروايات فإنَّ الإمام الباقرعليه السلام كان يقول: «إني أدخل السوق وأشتري اللحم المعروض فيه، وإن كنت لا أعلم أنَّ هؤلاء السودان يذكرون الله عند الذبح»، وفي الأحكام الظاهرة أنّ الأصل في الأحكام المشكوك فيها البراءة.

وهذه من الأصول الّتي أقيمت عليها قواعد المجتمع الإسلامي، ولهذا لايعمل الإمام على أساس علمه الإلهي ليكون حجة لغيره، وينتج مما قلناه مضافاً إلى أننا نقبل المشورة على أنها باعث لتأليف القلوب، فإننا كذلك لا نعتقد أنّ هذه المشورة ما هي إلا صورية وظاهرية، وإنّما شرّعت لتربية أفراد المجتمع الإسلامي، في غياب النَّبيﷺ والائمةعليهم السلام.

---

١. لو أخذنا في معرفة السوق بالتحقيق لا بالظاهر، فإنَّ سوقاً بهذا الاسم لا وجود له.

لذلك عمد النَّبيﷺ من أجل تعليم الطريقة المعقولة لإدارة الجامعة للآخرين إلى المشورة، وأحياناً يعمل خلاف علمه الإلهي لغلبة رأي الأكثرية، وشواهد هذا الأمر مثبتة في السيرة بكثرة.[١] ولكن كما قلنا سالفاً إنَّ المشورة لا تجري في الأمور الإلزاميّة، بل في الأمور الإجرائية ونظائرها غير المحتمة من جهة الشارع، وأمرُ الله مطاع على كلّ حال.

وأما عن موضوع التأويل الثاني، فينبغي أن يقال: إنَّ النّبيﷺ يعرف المنافقين في لحن القول، ولا جدال في هذا الشأن، لكنَّ النّبيﷺ لا يحتاج إلى نصب الفخاخ ليعرف بها المنافقين، حتى يجعل المشورة سبيلاً إلى ذلك، بل إنَّ قول المنافق متصل بطرق تفكيره، فإنَّ حقيقته الباطنية تنكشف من خلال أحاديثه، كما يقول الله تعالى لنبيّهﷺ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَالله لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾.[٢]

أي: أنَّ المنافق ينطق بأقوال في حضرة النّبيﷺ تعجبه، فيقول الله تعالى: إنه لكاذب، وهو أشدّ الناس عداءاً لك ولدينك، ومن استمرار كلام الله تعالى حول الموضوع نعلم أنَّ كلامه يدور حول الخلافة بعد النَّبيﷺ. ولما وضعت في مقابل آيات

---

١. وللتدليل على ذلك نأخذ نموذجاً على ذلك من رأي الأكثرية هي معركة أُحد نفسها، لاتفاق المسلمين على الخروج من المدينة.

٢. البقرة (٢): ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

المنافقين آية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ﴾[١] النازلة بإجماع المسلمين في حقّ أميرالمؤمنين‹، فإنَّ أبابكر كلّم النَّبي‹ في موضوع الخلافة وأضفى على أقواله غشاءاً حسناً، ولذلك عجب النَّبي‹ من قوله.

من ثمَّ وبناءاً على ما تقدم، فإنَّ المنافق تظهر نواياه من خلال أقواله ولا حاجة لكشف حقيقة الأشخاص بالمشورة معهم، مضافاً إلى ذلك فإنَّ آية المشورة لم تنزل بحق المنافقين أصلاً، بل هي موصولة كما تقدم بالمؤمنين الَّذين تابوا من بعد عمل الذنب.

الإمامة خارجة عن موضوع المشورة!

كما بيّنا سلفاً بأنَّ موضوع الشورى لم يبين في موارد إلزامية خاصة عن الله ورسوله‹. وقد نصّ الله تعالى في الآية ٢٦ من سورة الأحزاب على أنَّ الإمامة كالنبّوة مقام إلهي، فلو صَحَّ اختيار النبوة بالشورى لكانت الإمامة مثلها فيقول الله تعالى في النبوة والرسالة: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢]، من ثم لم يكن الله بحاجة إلى المشورة في اختيار النَّبي‹، والإمامة مثل النبوة تماماً، حيث قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[٣]، ومن ثم تخرج الإمامة من دائرة الانتخاب والشورى.

مع أنَّ الشورى تجري بعكس خلافة أبي بكر وعمر، ولو أننا فرضنا جدلاً أنَّ

---

١. البقرة (٢): ٢٠٧.

٢. الأنعام (٦): ١٢٤.

٣. القصص (٢٨): ٦٨.

الخلافة تتمّ بالشورى فإنَّ أبابكر اختير للخلافة بمشورة مَن؟ وهل إلا عمر اختاره خليفة؟ فهل أنَّ أبابكر عرض خلافته على أهل البيت؟ وهل اشترك المسلمون جميعاً في اختياره؟ أو أنَّ الناس واجهوا انتخاب عمر له كأمرٍ قد أبرم؟ فهم بايعوه بناءاً على أي دليل مفترض قهراً أو خوفاً؟ وهل في خلافة عمر حصل الإجماع أو صحّت الشورى؟ أو أن في خلافة عثمان يكون رأي الستة شورى أو انتخاباً؟ يتصوّر جماعة من البسطاء لو كان الأمر بالشورى حكماً أولياً مثل الجهاد والصوم والصلاة فإنَّ شورى السقيفة تكون جذورها قرآنيّة[١].

ويمكن أن نمثّل لهذا التصرف بسارقٍ خرج بعد سرقته رافعاً عقيرته: «**اقبضوا على اللص**»، فإنَّ بعض القوم ضعفاء النفس مع العلم بأنّهم ليسوا لصوصاً، ولكنهم خوفاً من الاتهام يضعون أيديهم مع القوم مشيرين إلى لعبة الاحتيال.

وبناءاً على هذا، فليست خلافة أبي بكر خلافة بالشورى، ولا خلافة عمر الّتي تمت بانتخاب من أبي بكر يصدق عليها أنها شورى، ولا شورى الرجال الستة الّتي سلبت حق الانتخاب من جميع المسلمين يمكن أن تسمّى شورى.

ولكن لما كان أهل السنة والجماعة تلامذة ابليس، وهو يجيد تعليم أولياءه، استفادوا من هذه الآية استفادة سيئة، وركنوا إلى المغالطة، ومع كون الآية ضدهم وليست ضد الشيعة، والشيعة يعتقدون بأن الشورى لا تكون في الأحكام الإلزامية، طبقاً لما أنزله الله في القرآن ودلّت عليه سيرة رسول الله ﷺ، فلا محل للشورى في الأحكام

---

١. بحث الجذور القرآنية ـ الّذي شاع أخيراً ـ له تفسير خاطئ، فما كل موضوع يسند إلى القرآن يكون ذلك دليلاً على صحته وجودته؛ لأنَّ الخمر والميسر وإبليس لها جذور قرآنية.

الإلزامية، وإذا ما كان أهل السنة يقولون بالشورى فإنَّ سيرة خلفائهم تخالفهم في ذلك.

العزم الراسخ لازمة من لوازم القيادة!

قال الله تعالى لنبيه بعد أن أمره بالمشورة: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[١] ومعناهُ: إذا تأكد لزوم المشورة للمجتمع فأجري عليها التجارب، عملاً بقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ ولم يقل ثم اعزم بعد المشورة، أي: متى أخذت قرارك بعد المشورة فتوكل على الله، وكن ثابت العزم، وينبغي أن يقال في تفسير هذه الآية: إنّ روح القيادة أساساً روح الإمضاء وعدم الترديد وروح القطع والتأكيد، والقائد المتردد لن يصل إلى غاية، وبالطبع يختلف هذا القطع عنه في الأفراد، فإنّه لا يقال للفرد: ما أقررت في خاطرك سِر عليه دونها مبالاة، فإنَّ هذا الأمر غير معقول ولا يقرّه أصحاب العقول. ولكنَّ العزيمة ـ بمعنى القرار الراسخ بعد المشورة ـ أمر عقلائي بالتمام والكمال، وهو صحيح عقلاً، ولكن لننظر ما ارتباطه بوقائع أُحد؟

في معركة أُحد أمر النَّبيﷺ المؤمنين بالاستعداد للجهاد، وهذا أمر إلهي، وفي هذه الآونة بدأ إجالة الرأي وإبداء النظر في كيفيّة الجهاد ومواجهة العدو، فقالت جماعة منهم: الأفضل من كل شيء أن نقاتلهم ونحن في المدينة، ولكنّ جماعة أخرى رأوا الخروج من المدينة أفضل، فرأى النَّبيﷺ أن يأخذ بمشورة هؤلاء؛ لأنهم الأعم الأغلب، ويخرج من المدينة، ويكون القتال خارجها، وإنما اضطر إلى هذا القرار لكثرة الضغط عليه، فاتخذ المنافقون قرار العودة إلى المدينة وهم في أثناء الطريق، ليضعوا

---

١. آل عمران (٣): ١٥٩.

النَّبيﷺ في ضائقة الحرج، ويوجدوا مشاكل في الحرب واتخاذ القرار الصحيح، ويقولوا: عُمِل بغير نظرنا، فلذلك لا سبيل لنا إلا العودة. وبناءاً على ما جاء في كتب السيرة فإنَّ النَّبيﷺ أجابهم بقوله: «ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامَته أن يضعها حتى يقاتل...»[١].

وبناءاً على هذا، ثبت لدينا بأن النَّبيﷺ متى ما تجهز للحرب فإن المنافقين يكثرون مجادلته، وغايتهم من هذا الجدال تنحصر في الأمور التالية:

١ـ وضع النَّبيﷺ في الحرج والضيق، ليحولوا بينه وبين اتخاذ القرار الصحيح.

٢ـ إهدار الوقت المناسب للقرار الصحيح.

٣ـ تضييع الوقت وإهدار الزمان المناسب ـ من حيث المكان والإمكانيّات وغيرها ـ لتنفيذ القرار الصحيح.

وينبغي التوجه إلى هذه النكتة الضرورية وهي أنَّ الله تعالى يخاطب المسلمين بشأن هذه الحرب بعد انقضاء ومرور تجربة حية على المسلمين.

وبعبارة أخرى: عند ما اتخذ النَّبيﷺ قراره بالخروج من المدينة خاطب المؤمنين الّذين اتفقوا مع المنافقين ـ ليرد كيد المنافقين في نحورهم[٢] ـ بأنكم على خطأ، لأنَّ الله

---

١. ليس معلوماً بالطبع أنَّ قول النَّبيﷺ له أصل وقاعدة عامة، لأنَّ هذا القول لا ينطبق على مثل حالات آدم ونوحﷺ ، وربما كانت عبارة «ما ينبغي للنَّبي» قد بُدّلت في كتب السيرة إلى «لنبيّ»، وكانت أول ما قالها النَّبيﷺ بهذا المعنى «لا ينبغي لنبيّ الإسلام» إذا اتخذ قرار الحرب أن يلغيه أو يتردد فيه.

٢. نعود عوداً على بدء فنقول: إنَّ هدف المنافقين هو إفراد النَّبيﷺ وتفريق أصحابه عنه، وإبقاؤه وحيداً بين المشركين، ولكن الله ردَّ كيدهم إلى نحورهم.

وعدنا بالنصر، فإذا بدأت الحرب فإنَّ النصر حليفكم، وكانت الحال كما أخبر ما داموا صامدين في ميدان القتال ولم يولوا المشركين أدبارهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾[١].

وبناءاً على هذا، فما كان لمؤمن أن يجادل النَّبيﷺ لأنّه رأى النتيجة الإيجابيّة لهذا القرار بأم عينه، ولكن لما كان المنافق قد أقام أهدافه على التخريب من أجل النفاق ـ وليس لقصور أو ضعف في أدلة أخذ القرار الصحيح ـ راحَ يجادل في قرار النَّبيﷺ، كما أشير إلى ذلك في الآيات الخاصة بالموضوع.

مع تحقق نصر الله لا سلطة لأحد على المؤمنين!

في الآية التالية ـ مع لحاظ هبوط إيمان المؤمنين إلى دركة دانية ـ يخاطبهم الله تعالى فيقول:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[٢]

ومن كلمات الله هذه يتجلّى لنا بأنَّ عدداً من المؤمنين ـ مع وجود هذه الشواهد كلها ـ ما زالوا مترددين، بناءاً على أوهام باطلة في نصرة الله لهم، إنهم يقولون صحيح أنَّ الله وعد بالنصرة، ولكنَّ الصحيح أيضاً أن لا تقع هذه النصرة مؤثّرة، ومع اعتقادهم بالنصر فإنهم ما زالوا يرون رؤساء المنافقين والمشركين (مثل أبي سفيان) بإزاء الله تعالى قادرين على أداء عمل ما.

---

١. آل عمران (٣): ١٥٢.

٢. آل عمران (٣): ١٦٠.

لذلك يخاطبهم الله بقوله: إن ينصركم الله فلن يتسلط عليكم أحد، وإن خلاكم الله وحدكم وخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده؟ وتستمر الآية وتنتهي بمجيء الجملة الاسمية للتأكيد: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: «توكلوا على الله»، وهذا يدل على أنهم ما زالوا يرون التوكل على الله غير فاعل في الحوادث، والله تعالى يقول: من كان مؤمناً فليتوكل على الله، وإن لم يكن على علم بكيفيّة نصر الله، واستعمال قدرته في العدو، وشكل إمداداته في قبال العدو.

تنزيه النَّبي ﷺ من الخيانة والخدعة:

الآية التالية تكشف حوادث أخرى من وقعة أُحد، فتقول:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.[١]

ومعلوم أنه لم تكن في وقعة أحد غنائم، لكي نعد الآية خاصة بالخيانة في تقسيم الغنائم بوقعة أُحد، ولكن الّذي يطمئن إليه العقل من القول الأصح هو كالتالي: إنَّ عدداً من المؤمنين البسطاء بل المغفلين، اعترضوا على النَّبيﷺ بقوله: إن كنت مطلعاً على مؤامرات المنافقين فلماذا لم تخدعهم؟ وذلك لما كان غرض المنافقين إخراج النَّبيﷺ، فلما لم يتظاهر بترك القتال مع المشركين؟ وعلى هذا الأساس بعد أن يتناسى المشركون الحرب تحمل عليهم، وتستأصل شأفتهم وتبيد خضراءهم. فيجيبهم الله على غفلتهم هذه: بأنَّ النَّبي لا يخون ولا يعمل عملاً يؤدي إلى الخيانة كما بيّن ذلك، وفي سورة البراءة مع الشدة الّتي أخذَ بها المشركين والمنافقين فإنه قال: أوفوا بالعهد مع

---

١. آل عمران (٣): ١٦١.

الذين عاهدتم ما داموا ثابتين على عهدهم، ولم يخلّوا به، وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[١] . وقال في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[٢]، لأنَّ الإسلام في الأساس منجم الأصول الأخلاقية والإنسانية، وليس سبباً للتفوق المادي فحسب، فلا تجوز الخيانة والخديعة من أجل مصالح مادية.

فللإسلام حول إرجاع الأمانة وصايا عجيبة ودساتير غريبة، والنَّبيﷺ لما ألجأه المشركون للهجرة من مكة أمرَ أميرالمؤمنينؑ أن يبقى بمكة ثلاثة أيام ليردَّ الأمانات لأصحابها[٣]، ويقول الإمامؑ: لو أنَّ قاتل أبي وضع السيف الّذي قتله به أمانة عندي، ثم جاءني يطلبه لدفعته إليه، مع العلم بأنه السيف الّذي يريد قتل أبي به.

المقارنة بين المؤمن وغير المؤمن:

ويقول الله تعالى في الموازنة بين أفراد المؤمنين وغير المؤمنين:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ الله كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[٤]

والمخاطب بهذه الآية هم المؤمنون؛ لأنهم كان يدور بخلدهم أنَّ الخسائر في القتلى واحدة بينهم وبين المشركين، هم في بدر وهؤلاء في أُحد، فما الفرق بينهم؟

لذلك يجيبهم الله تعالى بقوله: هل يستوي الذين يمشون إلى رضوان الله والذين

---

١. التوبة (٩): ٧.
٢. المائدة (٥): ١.
٣. هؤلاء المشركون الذين أرادوا الفتك برسول اللهﷺ هم أنفسهم أصحاب الأمانات، لأنهم يثقون به، ومع ذلك ومع خيانتهم لرسول اللهﷺ فإنه يأمر بإعطائهم أماناتهم.
٤. آل عمران (٣): ١٦٢.

يسعون مغاضبين الله، ومأواهم غداً جهنم، وعاقبتهم عاقبة السوء، ويواصل ذلك فيقول: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ الله والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[١].

التذكير بنعمة الرسالة:

وفي الآية التالية يذكّر الله تعالى بنعمة الرسالة فيقول:

﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

ولو كان الله تعالى قد أنزل هذه الآية في أول البعثة لكان أمراً طبيعياً، ولكنَّ مجيء الآية بعد البعثة بخمسة عشر سنة، وبعد وقوع حرب أُحد، لابدَّ أن تكون له علّة استوجبته.

وما يمكن استفادته من الآية نفسها في هذا الظرف هو أنَّ بعض ضعفاء الإيمان قالوا صراحة: إنَّ النَّبيﷺ لم يأتنا في هذه الحرب والهزيمة سوى التعب والزحمات والعذاب وندم الضمير، ولا شيء أكبر من ذلك، لذلك ذكر الله تعالى الهدف من إرسال المرسلين والأنبياءعليهم السلام للردّ على أصحاب هذه الأقوال الباطلة فقال: إنَّ الله تعالى منّ عليكم بأن أَرسل إليكم رسولاً منكم ليطهركم من سائر العيوب، ويمحو عنكم ظلام الذنوب، ويعلمكم الكتاب والحكمة، والهدف من إرسال الرسل هو

---

١. آل عمران (٣): ١٦٣.

٢. آل عمران (٣): ١٦٤.

هذا؛ لكي يهتدي به الناس، وليس الغرض من بعث الأنبياءﷺ هو راحة البال في الدنيا ونيل الغنائم فيها، لكي تحتجوا على ما لحق بكم.

لوم المؤمنين على الاعتراض على الله!

ويقول الله تعالى في استمرار خطابه مع المؤمنين ناقداً إياهم:

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[١]

وهذه الآية هي تنبيه للمؤمنين بأنَّ ما وقع لهم إنما كان بأيديهم، ولذلك ليس لهم على رسول اللهﷺ ولا على الله اعتراض.

وفي الآيات التالية يعيد الله تعالى من جديد إلى الأذهان هذا النكتة الثابتة، مِن أنَّ الأمور كلها بيد الله تعالى، ويشير فيها إلى الحكمة من ذلك، فيقول: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمْعَانِ فَبِإِذْنِ الله وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٢]، وإذا ما علم المؤمن بأنَّ ما وقع في حرب أُحد كان بإذن الله وبتقدير منه، ولمصلحة المؤمن نفسه، عندئذٍ ليس بمقدوره الاعتراض على النَّبيﷺ ولومه. ويعلم المؤمنون أنَّ النصر الإلهي في موارده كما كان على أساس المصلحة الّتي يعلمها الله تعالى، كذلك الإبقاء على الكافرين داخل في قسم الإعجاز، ولا يدَ للمؤمنين فيه، وهو على أساس من المصلحة العامة للمؤمنين.

---

١. آل عمران (٣): ١٦٥.

٢. آل عمران (٣): ١٦٦.

الشهيد المؤمن حيّ:

وبعد هذه التوجيهات يعود الله تعالى من جديد، فيخاطب نبيّه ﷺ، ويقول:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.[١]

وفي الآيات الأخرى يخاطب الله تعالى الناس، فيقول:

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾.[٢]

ولكنَّ المخاطب في الآية الّتي سبقت هو النَّبي ﷺ وحده، ويأمره مع التأكيد بنون التوكيد المشددة أن لا يعدَّ الشهداء موتى.

ولو أنَّ الآية انتهت عند هذا الحد، أي إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً﴾[٣] لأمكن لقائل أن يقول: إنَّ ذلك من باب التوقير والاحترام للشهداء، بأن لا يحسب بحساب الموتى، ولكن الجزء المتم للآية يردّ هذا التصور، ويثبت للسامع أنَّ هذا القول ليس من باب الاحترام فحسب، بل له حقيقة ملموسة متعينة في الخارج أيضاً، لأنَّ حرف «بل» يقلب مفهوم الكلام من النفي إلى الاثبات.

وبناءاً على هذا فإنَّ قول الله تعالى يدل على حياة الشهداء بنحو الحقيقة، وهم عند

---

١. آل عمران (٣): ١٦٩.

٢. البقرة (٢): ١٥٤.

٣. آل عمران (٣): ١٦٩.

الله يأتيهم رزقهم بكرة وعشيّاً، وهم في مقعد صدق عند الله. ولما كان الجزاء لا يتحقق إلا يوم القيامة، فلا يعتبر مقام القرب من الله من باب الجزاء، بل من باب فضل الله تعالى.

وربما أشكل مشكل، فقال: إنَّ هذا المقام يعطى للشهيد بعد الحشر، والآن لا يمكن اعتبار الشهداء أحياءاً.

وينبغي أن يقال: إنَّ القرآن أقام على حياة الشهيد قبل الحشر قرينة قطعيّة، وأنه يقال له شهيد والحشر ما يزال بعيداً، وذلك قوله في الآية التالية:

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[1]

فيقول الله عن الشهداء بالقطع واليقين: إنّهم أحياء عند الله، وتجري عليهم العوارض الإنسانيّة والملكات البشرية، أي: أنَّ الله يرزقهم من فضله وهم فرحون بما آتاهم ربّهم لأنَّ وعد الله لا يتحقق إلا يوم القيامة، وكل ما سبقه من النعم الّتي ينالها العبد فإنما ينالها بفضل الله تعالى، وما يراه الناس بعيداً من حياتهم ورزقهم وسرورهم وفرحهم فإنَّ مردّه إلى كونهم بشراً عاديين يفكرون بمثل عقول هؤلاء البشر، ويجتمع فكرهم على أنَّ بعد هذه الحياة الدنيوية موتاً، والموت مزيل للحياة، والإنسان الميّت يعود للحياة مرّة أخرى.

وهذا الاعتقاد محض خطأ واشتباه، لأنَّ الموت هو الزوال لحياة من هذا النوع، أي:

---

١. آل عمران (٣): ١٧٠.

الدنيوية، لا الحياة من حيث هي حياة تماماً، وذلك نظير الحياة الجنينيّة والحياة الدنيوية، فإنَّ الإنسان في الحياة الدنيوية بعد الحياة الجنينية يرتقي إلى حياة أكمل وأعظم، وليس معنى ذلك زوال الحياة الجنينيّة ونشوء حياة دنيوية جديدة، بل الحياة الدنيوية مرحلة أخرى من تلك الحياة الجنينيَّة.

ومن ثمَّ فإنَّ الإنسان في حياته بعد الموت يتمتع بخصائص الحياة الإنسانية قبل الموت، ولذلك ينال رزقه ويفرح بفضل الله عليه.

مضافاً إلى كونه مهتماً بإخوانه المؤمنين الأحياء وأقربائه، ولذلك يقول الله تعالى في الآية التالية:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[١]

بل يقول في موضع آخر:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.[٢]

ومن أجل أن يكون ابناء الشهيد وأهل بيته معه في رتبته الأخروية، فإنَّ الله ينعم عليهم برتب أعلى من رتبهم، ليساووا الشهيد في رتبته ويلحقوا به، وليس معنى ذلك أنهم والشهيد سواء في الرتبة، بل يرفعهم ليتساووا في الدرجات، ويحلوا في محل واحد، والله لا يضيع أجر المؤمنين.

---

١. آل عمران (٣): ١٧١.

٢. الطور (٥٢): ٢١.

ويعلم من هذا الجزء من الآية: أنَّ هذه المقامات ترتبط بالمؤمنين، لا الشهداء وحدهم المجردين عن الإيمان، وأنّ الله تعالى أعطى هذا المقام للشهداء المؤمنين، وأجرى تطبيقه عليهم لكي لا يعتقد الناس بأنَّ المؤمن الّذي قتل في سبيل الله قد قضي عليه بالتلف والزوال، وكذا إذا مات حتف أنفه.

وملخص تفسير الآيات النازلة بحق شهداء أُحد، والآية العامة ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾[١] كالتالي: أنَّ شهادة المؤمن بعلم الله وتقديره وبإذنه ومشيئته والمصلحة الّتي يعلمها.

وإذا ما استشهد المؤمن في الجهاد أو في القيام بالواجب في سبيل الله تعالى، فإنه لا يرى خسراناً ولا هواناً، وإنما يتضاعف قدره ويعلو شأنه ودرجاته.

وهذا المقام مختص بالمؤمنين، ولا شأن للشهادة الصرفة من دون إيمان، ولكن من أجل أن لا يتبادر إلى خلد المسلمين أنَّ الشهيد قد تلاشى وذهب فقد طبق الله تعالى هذا المقام عليه. ولو أنَّ المؤمن كان على علم بشهادته لعلمه بما لَهُ مِن مقام عند الله فإنَّ ذلك لا يسقط عنه فرض الجهاد؛ ولذا لا تكون الحرب والشهادة نقصاً في إيمانه، بل سبباً في علوّ درجاته الإيمانية، بسبب قيامه بواجب الجهاد.

وبناءاً على هذا، فمن كان مؤمناً بالقرآن متقبلاً له بصفته وحياً سماوياً، لا يمكن له أن يوجّه اعتراضه بأنّ المؤمن إذا استشهد في سبيل واجبه الجهادي فقد حَمَّلَ الشرع والإيمان والمجتمع خسارة فادحة. ومن الطبيعي أنَّ المؤمن العادي لا يعلم عاقبة أمره[٢]

---

١. آل عمران (٣): ١٦٩.

٢. وبالطبع قد يخبر النّبيّ أو الأئمة بناءاً على مصلحة خاصة بعض المؤمنين بما يجري عليهم من الشهادة، وجاء في رواية مقطوع بها عن أهل السنة: أنَّ عمار بن ياسر قد كظّه العطش (أي: جهده من

ولكنَّ أولياء الله الأئمة الأطهار عليهم السلام لهم علم بما يجري عليهم وبما في ذلك شهادتهم[1] وطبقاً لما يقرّه القرآن لا ينبغي للمسلم أن يعترض على المؤمن الشهيد قائلاً: لماذا ألقيت نفسك في الهلكات، مع أنَّ حياتك لو دامت لكانت نفعاً للإسلام، وقد أصيب الإسلام بأضرار لا قِبَلَ له بها بشهادتك؟ وهذا مخالف لمنطق القرآن، لا أنه مخالف لمذهب الشيعة في حق الإمام المعصوم عليه السلام.

وصحيح أنَّ الإسلام لا يشجّع على القتل، ولكنه يأمر بالجهاد وإن كان مع القتل ﴿وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾[2] ومن كان واجبه الحضور في الجهاد فإن كفاءته تنحصر في الجهاد وترك الجهاد نقص له.

ومع التحقيق في الآيات لا يبقى مجال للشك أو الشبهة في مقام المؤمن، ولا في موقعه، وكأنَّ الناظر في الآيات لا يرى القرآن وحياً، ولكنه يعلم أنَّ رأي المسلمين هو هذا.

اعتقادات أهل السنّة الباطلة في الحياة بعد الموت!

روى ابن هشام في سيرته في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله

الكرب) وهو يحارب في إحدى المواقع، وهو شيخ قد نيّف على التسعين، فانحاز ناحية واستسقى، فأتته عجوز بقدح فيه لبن، فقال عمار بعد أن شربه: هذا هو اليوم الّذي وعدني به رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لي: آخر شرابك قدح لبن، قبل أن تقتل. قال عمار هذا ثم استقبل الحرب واستشهد رضوان الله عليه.

١. جاء في طبقات ابن سعد: أنَّ الحسنين عليهما السلام كانا ذات يوم بالحمام؛ إذ دخل الحمام ابن ملجم لعنه الله فقاما وتركا الحمام، ولما سألهما ابن جعفر عن السبب قالا له: إنه قاتل أبينا، ولا نقدر على مشاهدته. وهذه الحكاية ترجع إلى زمن حياة أمير المؤمنين عليه السلام. (راجع: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٢٥).

٢. آل عمران (٣): ١٩٥.

أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١] بسند صحيح عند المخالفين، عن رسول الله ﷺ: أنه سأل عن هذه الآيات فقال:

«لمّا أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر[٢] ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحُسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فانزل الله على رسوله صلى الله عليه [وآله] وسلم هولاء الآيات: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾.[٣]

وكذلك يروي ابن هشام قريباً من هذا المضمون حديثاً آخر عن عبدالله بن مسعود.[٤]

وهذا النموذج من الروايات إن وُجدَ في كتبنا الحديثية فهو مروي بطريق ضعيف أو فاقدٍ للسند، فإنه في كتب المخالفين رُوي بسند صحيح، وهم يغضون الطرف عنه، ويتشبثون بالروايات الضعيفة المروية من قبلنا.

---

١. آل عمران (٣): ١٦٩.

٢. في بعض الروايات، إن حمائم خضراً هبطت عليهم لالتقاط الحب.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١٢٦.

٤. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١٢٧.

واقعة حمراء الأسد!

وفي الآيات التالية يشير الله تعالى إلى واقعة أخرى حدثت بعد حرب أُحد ويقول سبحانه:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لله وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[١]

ومعنى الآية: أنَّ الذين أحسنوا هم أولئك الذين نالتهم جراحات، وأجهدوا أنفسهم في القتال، لكلّ واحد منهم حيث قاموا بواجبهم أحسن قيام أجر عظيم.

وهذه الآية تتصل بالحادثة الّتي وقعت على إثر وقعة أُحد، فقد رجع أبوسفيان بعد وقعة أُحد وشعاره: «اعلُ هبل اعلُ هبل»، وتوعدهم قائلاً: إنَّ موعدكم بدر، وفي العام القابل تجمع عسكر أبي سفيان في مكان يدعى «حمراء الأسد» على بعد ثمانية أميال من المدينة، واتخذوا قرارهم بالعودة إلى الحرب، واستئصال المسلمين بعد أن تحملوا الجراح الشديدة[٢] من رأس، وأُشيع في المدينة أنّ أباسفيان ينوي العودة إلى الحرب، لأنهم لم يبلغوا في حرب أُحد الغاية من قتل رسول الله ﷺ وقلع الإسلام من جذوره، ولذلك جمع النَّبي ﷺ المسلمين، وأرسل وراء المشركين جماعة منهم تقدموا لطلب القتال يتعقبونهم، ولما بلغوا حمراء الأسد لم يقعوا للمشركين على عين ولا أثر، وعادوا إلى أصحابهم، ومن المقطوع به أن من هؤلاء الذين تعقّبوا المشركين في حمراء

---

١. آل عمران (٣): ١٧٢.

٢. القرح: معناه الجراح الشديدة الّتي يصعب تحملها وفي القرآن تمَّ التعبير عن المصيبة الّتي نزلت بالمسلمين من قتل الأحباب والأعزة بالقرح.

الأسد هم أولئك الذين فرّوا في الحرب، وأمّا الذين لم يشاركوا في الحرب من أولها فلم يشتركوا معهم، ويقول الله تعالى في حق الأشخاص الّذين تعقبوا المشركين الآية التالية:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لله وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[١]

أي: الذين أحسنوا في أداء واجبهم الجهادي، واتقوا الله، فإنَّ لهم عند الله أجراً عظيماً.

والعلم حاصل بأنَّ الذين خرجوا لحمراء الأسد كلهم مؤمنون، ويستحقون الجزاء الأكبر، وأما القيد الّذي مازج ألفاظ الآية ﴿أَحْسَنُواْ وَاتَّقَواْ﴾ فإنّه يدل على وجود المنافقين بينهم إلى جانب المؤمنين، ولا شك أنَّ حضور المنافقين في هذه المعركة الخاصة إنما كان من أجل الإجهاز على ما تبقى من الإسلام، والقضاء على رسول الله ﷺ ولذلك وضع الله هذا القيد ما بين ألفاظ الآية ليعلم المؤمنون أنَّ الأجر مختص بهم، وليس مترتّباً على حضور المعركة فحسب، لأنه خاص بالمتقين وحدهم، وليس لمن صحب النَّبي ﷺ من أجل أن يخونه ويهيئ لأعدائه أسباب الغدر به[٢]، و«من» هنا تبعيضيه، أي: أنَّ الأجر خاص بالمحسنين وبأهل التقوى.

وفي الآية الأخرى يصف المؤمنين، فيقول:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

---

١. آل عمران (٣): ١٧٢.

٢. ومثال آخر لهذه النظائر: واقعة بيعة الشجرة.

إِيمَانا وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. [١]

وهذا يعني أنَّ المنافقين كانوا حضوراً في حمراء الأسد، وكان غرضهم من ذلك إشاعة الرعب بين المؤمنين، ويواصل الله تعالى وصفه للمؤمنين، فيقول:

﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ الله وَالله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. [٢]

وفي الآية التالية يلفتهم إلى خطر الشيطان ويقول مواساة للمؤمنين:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. [٣]

والآيات التالية كشفت الستار عن واقعيّات السنة الثالثة من الهجرة، وهي تستحق الملاحظة الواعية جداً.

---

١. آل عمران (٣): ١٧٣.
٢. آل عمران (٣): ١٧٤.
٣. آل عمران (٣): ١٧٥.

القسم الثاني: واقعيات من السنة الثالثة للهجرة

تسلية النَّبيﷺ:

يقول الله تعالى مخاطباً نبيّه:

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[1]

وتوجد في الآية عدد من النكات نشير إليها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ والآية ناظرة إلى أنَّ هؤلاء الأفراد الذين عناهم الله تعالى، بلغوا الكفر ـ وهم يعيشون حالة الكفر الآن ـ ويمشون بسرعة إلى نهاية الكفر، إذ لو قال الله تعالى: «يسارعون إلى الكفر» لكان معناه يمشون إلى الكفر بسرعة قصوى، وهذا يعني أنهم لم يكفروا بعد ولكنهم يحثون الخطى نحو الكفر، وأما ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فمعناها أنّهم ينتقلون مرحلة إثر مرحلة، وبسرعة متناهية يتقدمون في الكفر.

وأما النكتة الثانية: فينبغي التوجه إلى علة هذا البيان الّذي أظهره الله تعالى حيث

---

١. آل عمران (٣): ١٧٦.

يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئًا﴾ وبعبارة أخرى: ينبغي النظر بدقة في قوله تعالى: هؤلاء الذين يسارعون في الكفر لن يضروا الله شيئاً، ومع التأمل في الآية يظهر للمتأمل أنَّ المنافقين كانوا يهددون النَّبيﷺ بأنّهم لن يتبعوه بعد اليوم، ولن يقاتلوا معه؛ لذا بيّن الله سبحانه لكشف الغمّ عن المؤمنين أنه غني عن المنافقين، وأخبر أنَّ هؤلاء لن يضروا الله شيئاً، كما أنَّ المسلمين ـ بعد السنة الثالثة من الهجرة ـ ما اشتركوا بحرب أبداً، وكانوا أشبه بالمتفرجين، وأذلّ الله المشركين من دون تدخل من المسلمين، بل بيد قدرته أميرالمؤمنينؑ، وأقام قواعد الدين.

فخذ على سبيل المثال: حرب الأحزاب، حيث أحاط المشركون بالمدينة[1] فإنَّ المسلمين لم يقيموا في وجوه المشركين صفوفهم، ولم يتأهبوا للحرب، وتجمعوا وراء الخندق بعد حفره، ولم يستعدّوا للقتال، وعند ما عبر عمرو بن عبدود الخندق على ظهر فرسه وطلب البراز، وكان شعاره: أنتم يا من تعتقدون بأنَّ القتل مرادف لدخول الجنة، لماذا أحجمتم عنّي؟ فلم يجرؤ أحد منهم على مبارزته، ولم ينهض له إلا أميرالمؤمنينؑ حتى أسكته وأرسله إلى الدرك الأسفل. وقال الله تعالى: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[2] بأميرالمؤمنينؑ الّذي هو يد الله وقدرته.

والآية تعني أنّ الله تعالى يُعدّ العمل الّذي يقوم به أميرالمؤمنينؑ عمله، وفعله فعله، ويعدّه منفرداً عن باقي المؤمنين ومتميّزاً عنهم.

وفي حرب حنين، هرب المؤمنون أيضاً، ولم يشاركوا في الحرب، وصوّرَ الباري

---

١. يقول الله تعالى في هذه الحادثة: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (الأحزاب (٣٣): ١٠).
٢. الأحزاب (٣٣): ٢٥.

سبحانه لحرب حنين الصورة التالية:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.[١]

وفي خيبر، كذلك لم تنشب حرب، ولكن يد الله أميرالمؤمنين‌عليه‌السلام وضع نهاية للحرب بفتح القلعة.

وبناءاً على هذا فإنَّ المسلمين بعد حرب أُحد لم يشتركوا بأيّة حرب، ولذلك فإنَّ الله تعالى يقول:

﴿يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[٢]

وفي الآية التالية يؤكد الله مجدداً على هذا الموضوع فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٣]

والغاية من هذه الآية هي أنَّ هؤلاء قد أعلنوا كفرهم، ولم يعد النفاق مجدياً، فقد صرّحوا بكفرهم، ومع ذلك فإنّهم لا يقدرون على إلحاق الضرر بالله تعالى.

---

١. التوبة (٩): ٢٥.

٢. آل عمران (٣): ١٧٦.

٣. آل عمران (٣): ١٧٧.

سنّة الإمهال والإملاء!

ويقول الله تعالى في بيان سنة الإمهال الّتي يبيحها للكافرين والمنافقين فيقول:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.[١]

وكذلك يعرب عن سنته هذه وعن بواعثها فيقول:

﴿مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ الله يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِالله وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[٢]

وهنا يعطف الله تعالى أفكارهم على أنه لا يطلعهم على الأسرار الغيبيّة، وهذا العطف جواب لأولئك الذين يعترضون على سنة الابتلاء والامتحان، ويقولون: إنَّ الله قادر على إطلاعنا على أحوال المنافقين دون تعريضنا للامتحان والإبتلاء، ولكنَّ الله تعالى يقول: لهذه السنة حكمة، وهي جزء من الأسرار الغيبية، والله تعالى لا يطلع أحداً منكم مطلقاً على غيبه.

وتوجد نكتة أخرى في هذه الآية وهي: أنَّ شرط الإيمان والتقوى يعيده مجدداً من أجل الأجر العظيم، وهذا التأكيد يدل على أنَّ المؤمنين أيضاً لا يلقون بالاً للأمر الإلهي، ومن أجل ذلك استُدعِيَ أن يكرر الشرط.

---

١. آل عمران (٣): ١٧٨.

٢. آل عمران (٣): ١٧٩.

ختام الآيات الخاصّة بأُحد نقلاً عمّا نقلته كتب السيرة:

وآخر آية نزلت في مورد أُحد ـ كما نقلته كتب السيرة ـ هذه الآية:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.[١]

* * *

والحمد لله ربّ العالمين

---

١. آل عمران (٣): ١٨٠.

المصادر

١. **القرآن الكريم.**

٢. **ابن أبي الحديد**، أبوحامد عبدالحميد بن هبة الله، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣. **ابن أبي شيبة**، أبوبكر عبدالله بن محمد، **المصنف**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ .

٤. **ابن إسحاق**، محمد بن إسحاق بن يسار، **السيرة النبوية**، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

٥. **ابن الأثير**، أبوالحسن علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

٦. **ابن الأثير**، أبوالسعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

٧. **ابن حنبل**، أبوعبدالله أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال)، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر / دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت.

٨. **ابن سعد**، أبوعبدالله محمد بن سعد كاتب الواقدي، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

٩. **ابن عبدالبر**، أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

١٠. **ابن كثير**، أبوالفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م.

١١. ـــــــــــــــ، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، مطبعة عيسي البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م.

١٢. **ابن هشام**، أبومحمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبدالحفيظ شبلي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

١٣. **البخاري**، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٤. **البيهقي**، أبوبكر أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ.

١٥. **الترمذي**، أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة، **سنن الترمذي**، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ١٩٩٨ م.

١٦. **الجرجاني**، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، دار

الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

١٧. **الحاكم النيسابوري**، أبوعبدالله محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفىٰ عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م.

١٨. **الذهبي**، أبوعبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

١٩. **الزمخشري**، أبوالقاسم محمود بن عمرو، **الفائق في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، الطبعة: الثانية، دار المعرفة ـ لبنان.

٢٠. **السهيلي**، أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق: عمر عبدالسلام السلامي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م.

٢١. **السيوطي**، عبدالرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر ـ بيروت.

٢٢. **الطبراني**، أبوالقاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية.

٢٣. **الطبرسي**، أبوعلي الفضل بن الحسن، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان، ١٣٧٩ هـ / ١٣٣٩ ش.

٢٤. **الطبري**، أبوجعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف ـ مصر، ١٩٦١ م.

٢٥. ــــــــــــــ، **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، موسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م.

٢٦. **علي بن إبراهيم**، أبوالحسن علي بن إبراهيم القمي، **تفسير القمي**، تصحيح وتعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف، ١٣٨٦ هـ.

٢٧. **فرات الكوفي**، أبوالقاسم فرات بن إبراهيم الكوفي، **تفسير فرات الكوفي**، مطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٢٨. **الفراهيدي**، أبوعبدالرحمن الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٩. **الكليني**، ثقة الإسلام محمد بن يعقوب، **الكافي**، دار الكتب الإسلامية ـ طهران، ١٣٦٥ ش.

٣٠. محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

٣١. مسلم، أبوالحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر.

٣٢. **النسائي**، أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، تحقيق: حسن عبدالمنعم شبلي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.

٣٣. **الواقدي**، أبوعبدالله محمد بن عمر، **المغازي**، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩ م.

الفهرس